

## سورة الحجرات

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ

﴿ يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا لَا تَقْدُمُوا بَيْنَ يَدَيْ اللَّهِ وَرَسُولِهِ وَاتَّقُوا اللَّهَ إِنَّ اللَّهَ سَمِيعٌ عَلِيمٌ ﴾ (١)

فيه ثلاث مسائل:

الأولى: قوله تعالى: ﴿ يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا لَا تَقْدُمُوا بَيْنَ يَدَيْ اللَّهِ وَرَسُولِهِ ﴾ قال العلماء: كان في العربي جفاء وسوء أدب في خطاب النبي ﷺ وتلقيب الناس. فالسورة في الأمر بمكارم الأخلاق ورعاية الآداب. وقرأ الضحاك ويعقوب الحضرمي «لا تَقْدُمُوا» بفتح التاء والبدال من التقدم (١). الباقون ﴿تَقْدُمُوا﴾ بضم التاء وكسر الدال من التقديم. ومعناها ظاهر، أي لا تقدموا قولاً ولا فعلاً بين يدي الله وقول رسوله وفعله فيما سبيله أن تأخذه عنه من أمر الدين والدنيا. ومن قدم قوله أو فعله على الرسول ﷺ فقد قدمه على الله تعالى، لأن الرسول ﷺ إنما يأمر عن أمر الله عز وجل.

الثانية: واختلف في سبب نزولها على أقوال ستة: الأول: ما ذكره الواحدي من حديث ابن جريج قال: حدثني ابن أبي مليكة أن عبد الله بن الزبير أخبره أنه قدم ركب من بني تميم على رسول الله ﷺ، فقال أبو بكر: أمر القعقاع بن معبد. وقال عمر: أمر الأقرع بن حابس. فقال أبو بكر: ما أردت إلا خلافي. وقال عمر: ما أردت خلافاً. فتصاديا حتى ارتفعت أصواتهما، فنزل في ذلك: ﴿ يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا لَا تَقْدُمُوا بَيْنَ يَدَيْ اللَّهِ وَرَسُولِهِ ﴾ إلى قوله ﴿وَلَوْ أَنَّهُمْ صَبَرُوا حَتَّى تَخْرُجَ إِلَيْهِمْ﴾ (٢). رواه البخاري عن الحسن بن محمد بن الصباح (٣)، وذكره المهدي أيضاً.

الثاني: ما روي أن النبي ﷺ أراد أن يستخلف على المدينة رجلاً إذا مضى إلى خيبر، فأشار عليه عمر برجل آخر، فنزل ﴿ يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا لَا تَقْدُمُوا بَيْنَ يَدَيْ اللَّهِ وَرَسُولِهِ ﴾. ذكره المهدي أيضاً.

الثالث: ما ذكره الماوردي عن الضحاك عن ابن عباس رضي الله عنهما: أن النبي ﷺ أنفذ أربعة وعشرين رجلاً من أصحابه إلى بني عامر فقتلوهم، إلا ثلاثة تأخروا عنهم فسلموا وانكفؤوا (٤) إلى المدينة، فلقوا رجلاً من بني سليم فسألوهما عن نسبهما فقالا: من بني عامر، لأنهم أعز من بني سليم فقتلوهما، فجاء نفر من بني سليم إلى رسول الله ﷺ فقالوا: ان بيننا وبينك عهداً، وقد قتل منا رجلان، فوداهما النبي ﷺ بمائة بعير، ونزلت عليه هذه الآية في قتلهم الرجلين (٥). وقال قتادة: إن ناساً كانوا يقولون لو أنزل في كذا، لو أنزل في كذا؟ فنزلت هذه الآية (٦). ابن عباس: نهوا أن يتكلموا

(١) قراءة متواترة: تقريب النشر (ص ١٧٥).

(٢) صحيح: البخاري (٤٨٤٧) في التفسير وراجع أسباب النزول (ص ٣٢٧، ٣٢٨) للواحدي.

(٣) صحيح: انظر السابق. (٤) فانكفؤوا: عادوا ورجعوا. النهاية (١٨٣/٤) لابن الأثير.

(٥) ضعيف: انظر: النكت والعيون (٣٢٦/٥) للماوردي، والضحاك لم يلق ابن عباس رضي الله عنهما.

(٦) مرسل: ذكره الطبري (١١٩/٢٦) في تفسيره، وقال قتادة: «ذكر لنا»، فالإسناد بلاغ ضعيف.

بين يدي كلامه (١). مجاهد: لا تفتاتوا (٢) على الله ورسول حتى يقضي الله على لسان رسوله، ذكره البخاري (٣) أيضا. الحسن: نزلت في قوم ذبحوا قبل أن يصلي رسول الله ﷺ، فأمرهم أن يعيدوا الذبح (٤). ابن جريج: لا تقدموا أعمال الطاعات قبل وقتها الذي أمر الله تعالى به ورسوله ﷺ.

قلت: هذه الأقوال الخمسة المتأخرة ذكرها القاضي أبو بكر بن العربي، وسردها قبله الماوردي. قال القاضي: وهي كلها صحيحة تدخل تحت العموم، فالله أعلم ما كان السبب المشير للآية منها، ولعلها نزلت دون سبب، والله أعلم. قال القاضي: إذا قلنا إنها نزلت في تقديم الطاعات على أوقاتها فهو صحيح، لأن كل عبادة مؤقتة بميقات لا يجوز تقديمها عليه كالصلاة والصوم والحج، وذلك بين. إلا أن العلماء اختلفوا في الزكاة، لما كانت عبادة مالية وكانت مطلوبة لمعنى مفهوم، وهو سد خلة الفقير، ولأن النبي ﷺ استعجل من العباس صدقة عامين، ولما جاء من جمع صدقة الفطر قبل يوم الفطر حتى تعطى لمستحقها يوم الوجوب وهو يوم الفطر، فاقتضى ذلك كله جواز تقديمها العام واللائين. فإن جاء رأس العام والنصاب بحاله وقعت موقعها. وإن جاء رأس العام وقد تغير النصاب تبين أنها صدقة تطوع. وقال أشهب: لا يجوز تقديمها على الحول لحظة كالصلاة، وكأنه طرد الأصل في العبادات فرأى أنها إحدى دعائم الإسلام فوفاها حقها في النظام وحسن الترتيب. ورأى سائر علمائنا أن التقديم اليسير فيها جائز، لأنه معفو عنه في الشرع بخلاف الكثير. وما قاله أشهب أصح، فإن مفارقة اليسير الكثير في أصول الشريعة صحيح، ولكنه لمعان تختص باليسير دون الكثير. فأما في مسألتنا فاليوم فيه كالشهر، والشهر كالسنة. فإما تقديم كلي كما قاله أبو حنيفة والشافعي، وإما حفظ العبادة على ميقاتها كما قال أشهب.

الثالثة: قوله تعالى: ﴿لَا تَقْدِمُوا بَيْنَ يَدَيْ اللَّهِ﴾ أصل في ترك التعرض لأقوال النبي ﷺ، وإيجاب اتباعه والافتداء به، وكذلك قال النبي ﷺ في مرضه: «مروا أبا بكر فليصل بالناس». فقالت عائشة لحفصة رضي الله عنهما: قولني له إن أبا بكر رجل أسيف (٥) وإنه متى يقيم مقامك لا يُسمع الناس من البكاء، فَمَرُّ عمر فليصل بالناس. فقال ﷺ: «إنكن لانتن صواحب يوسف (٦) مروا أبا بكر فليصل بالناس» (٧). فمعنى قوله: «صواحب يوسف» الفتنة بالرد عن الجائز إلى غير الجائز. وربما احتج بَعَاةُ القياس بهذه الآية. وهو باطل منهم، فإن ما قامت دلالة فليس في فعله تقديم بين يديه. وقد قامت دلالة الكتاب والسنة على وجوب القول بالقياس في فروع الشرع، فليس إذا تقدم بين يديه. ﴿وَاتَّقُوا اللَّهَ﴾ يعني في التقدم المنهي عنه. ﴿إِنَّ اللَّهَ سَمِيعٌ﴾ لقولكم ﴿عَلِيمٌ﴾ بفعلكم.

(١) ضعيف: الطبري (٢٦/ ١١٩) في تفسيره من طريق العوفي.

(٢) صحيح إلى مجاهد والسابق (٢٦/ ١١٩). ومعنى لا تفتاتوا: أي لا تختلفوا ولا تباعدوا. المعجم الوجيز (ص ٤٦٠).

(٣) علقه البخاري باب (٤٩) في التفسير (٨/ ٥٨٩ فتح).

(٤) مرسل: علقه الطبري (٢٦/ ١١٩)، ووصله من ناحية قتادة صحيحًا.

(٥) رجل أسيف: سريع البكاء والحزن، رقيق. النهاية (١/ ٤٨) لابن الأثير.

(٦) المعنى: إنكن تظهرن خلاف ما تبطن.

(٧) صحيح: وقد سبق.

﴿يَأْيَاهَا الَّذِينَ آمَنُوا لَا تَرْفَعُوا أَصْوَاتَكُمْ فَوْقَ صَوْتِ النَّبِيِّ وَلَا تَجْهَرُوا لَهُ بِالْقَوْلِ كَجَهْرِ بَعْضِكُمْ لِبَعْضٍ أَن تَحْبَطَ أَعْمَلُكُمْ وَأَنتُمْ لَا تَشْعُرُونَ﴾ (١)

فيه ست مسائل :

الأولى: قوله تعالى ﴿يَأْيَاهَا الَّذِينَ آمَنُوا لَا تَرْفَعُوا أَصْوَاتَكُمْ فَوْقَ صَوْتِ النَّبِيِّ﴾ روى البخاري والترمذي عن ابن أبي مليكة قال: حدثني عبدالله بن الزبير أن الأقرع بن حابس قدم على النبي ﷺ، فقال أبو بكر: يا رسول الله استعمله على قومه، فقال عمر: لا تستعمله يا رسول الله، فتكلمما عند النبي ﷺ حتى ارتفعت أصواتهما، فقال أبو بكر لعمر: ما أردت إلا خلافاً، قال: فنزلت هذه الآية ﴿يَأْيَاهَا الَّذِينَ آمَنُوا لَا تَرْفَعُوا أَصْوَاتَكُمْ فَوْقَ صَوْتِ النَّبِيِّ﴾ قال: فكان عمر بعد ذلك إذا تكلم عند النبي ﷺ لم يسمع كلامه حتى يستفهمه. قال: وما ذكر ابن الزبير جده يعني أبا بكر. قال: هذا حديث غريب حسن. وقد رواه بعضهم عن ابن أبي مليكة مرسلاً، لم يذكر فيه عن عبدالله بن الزبير (١).

قلت: هو عند البخاري، قال: عن ابن أبي مليكة كاد الخيران أن يهلكا أبو بكر وعمر، رفعا أصواتهما عند النبي ﷺ حين قدم عليه ركب بني تميم، فأشار أحدهما بالأقرع بن حابس أخي بني مجاشع، وأشار الآخر برجل آخر، فقال نافع: لا أحفظ اسمه، فقال أبو بكر لعمر: ما أردت إلا خلافاً. فقال: ما أردت خلافاً. فارتفعت أصواتهما في ذلك، فأنزل الله عز وجل: ﴿يَأْيَاهَا الَّذِينَ آمَنُوا لَا تَرْفَعُوا أَصْوَاتَكُمْ فَوْقَ صَوْتِ النَّبِيِّ﴾ الآية. فقال ابن الزبير: فما كان عمر يسمع رسول الله ﷺ بعد هذه الآية حتى يستفهمه (٢). ولم يذكر ذلك عن أبيه، يعني أبا بكر الصديق. وذكر المهدي عن علي رضي الله عنه: نزل قوله ﴿يَأْيَاهَا الَّذِينَ آمَنُوا لَا تَرْفَعُوا أَصْوَاتَكُمْ فَوْقَ صَوْتِ النَّبِيِّ﴾. فينا لما ارتفعت أصواتنا أنا وجعفر وزيد بن حارثة، نتنازع ابنة حمزة لما جاء بها زيد من مكة، ففقدى بها رسول الله ﷺ لجعفر، لأن خالته عنده. وقد تقدم هذا الحديث في «آل عمران» (٣).

وفي «الصحيحين» عن أنس بن مالك أن النبي ﷺ افتقد ثابت بن قيس فقال رجل: يا رسول الله، أنا أعلم لك علمه، فاتاه فوجده جالساً في بيته منكساً رأسه، فقال له: ما شأنك؟ فقال: شرٌّ كان يرفع صوته فوق صوت النبي ﷺ فقد حبط عمله وهو من أهل النار. فأتى الرجل النبي ﷺ فأخبره أنه قال كذا وكذا. فقال موسى (٤): فرجع إليه المرة الآخرة ببشارة عظيمة، فقال: «أذهب إليه فقل له إنك لست من أهل النار ولكنك من أهل الجنة» (٥) لفظ البخاري وثابت هذا هو ثابت بن قيس بن شماس الخزرجي يكنى أبا محمد بابنه محمد. وقيل: أبا عبدالرحمن. قتل له يوم الحرة (٦)

(١) متفق عليه: سبق تخريجه في الصحيحين، وانظر الترمذي (٣٣٦٦) في تفسير القرآن.

(٢) صحيح: البخاري (٧٣٠٢) في الاعتصام بالكتاب والسنة.

(٣) عند الآية (٤٥).

(٤) هو موسى بن أنس، أحد رواة هذا السند.

(٥) متفق عليه: البخاري (٣٦١٣) في المناقب، ومسلم (١١٩) في الإيمان.

(٦) هذا مخالف للمشهور عند أهل السير لأن القتل كان يوم اليمامة كما سيأتى - والحرة هنا المراد بها: حرة واقم سنة (٦٣ هـ). وحرة واقم: أرض بظاهر المدينة بها حجارة سود كثيرة. النهاية (٣٦٥/١) لابن الأثير.

ثلاثة من الولد: محمد، ويحيى، وعبدالله. وكان خطيباً بليغاً معروفاً بذلك، كان يقال له خطيب رسول الله ﷺ، كما يقال لحسان شاعر رسول الله ﷺ. ولما قدم وفد تميم على رسول الله ﷺ وطلبوا المفاخرة قام خطيبهم فافتخر، ثم قام ثابت بن قيس فخطب خطبة بليغة جزلة فغلبهم، وقام شاعرهم وهو الأقرع بن حابس فأنشد:

أتيناك كيماً يعرف الناسُ فضلنا  
وإننا رؤوسُ الناسِ من كلِّ معشرٍ  
وإن لنا المرباعَ في كلِّ غارة  
فقام حسان فقال:

بني دارم لا تفخروا إن فخركم  
هبتم علينا تفخرون وأنتم  
يعود وبألا عند ذكر المكارم  
لنا خولٌ من بين ظئر وخادمٍ

في أبيات لهما.

فقالوا: خطيبهم أخطب من خطيبنا، وشاعرهم أشعر من شاعرنا، فارتفعت أصواتهم فأنزل الله تعالى: ﴿لَا تَرْفَعُوا أَصْوَاتَكُمْ فَوْقَ صَوْتِ النَّبِيِّ وَلَا تَجْهَرُوا لَهُ بِالْقَوْلِ﴾ (١). وقال عطاء الخراساني: حدثني ابنة ثابت بن قيس قالت: لما نزلت ﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا لَا تَرْفَعُوا أَصْوَاتَكُمْ فَوْقَ صَوْتِ النَّبِيِّ﴾ الآية، دخل أبوها بيته وأغلق عليه بابه، ففقدته النبي ﷺ فأرسل إليه يسأله ما خبره، فقال: أنا رجل شديد الصوت، أخاف أن يكون حبط عملي. فقال عليه السلام: «لست منهم بل تعيش بخير وتموت بخير». قال: ثم أنزل الله: ﴿إِنَّ اللَّهَ لَا يُحِبُّ كُلَّ مُخْتَالٍ فَخُورٍ﴾ [لقمان: ١٨] فأغلق بابه وطفق يبكي، ففقدته النبي ﷺ فأرسل إليه فأخبره، فقال: يا رسول الله، إني أحب الجمال وأحب أن أسود قومي. فقال: «لست منهم بل تعيش حميداً وتقتل شهيداً وتدخل الجنة». قالت: فلما كان يوم اليمامة خرج مع خالد بن الوليد إلى مسيلمة فلما التقوا انكشفوا، فقال ثابت وسالم مولى أبي حذيفة: ما هكذا كنا نقاتل مع رسول الله ﷺ، ثم حفر كل واحد منهما له حفرة فثبنا وقاتلنا حتى قتلنا، وعلى ثابت يومئذ درع له نفيسة، فمر به رجل من المسلمين فأخذها، فبينما رجل من المسلمين نائم أتاه ثابت في منامه فقال له: أوصيك بوصية، فإياك أن تقول هذا حلم فتضيعه، إني لما قتلت أمس مر بي رجل من المسلمين فأخذ درعي ومنزله في أقصى الناس، وعند خباته فرس يستن (٢) في طوله (٣)، وقد كفاً على الدرع برم (٤)، وفوق البرمة رحل، فأت خالداً فمره أن يبعث إلى درعي فيأخذها، وإذا قدمت المدينة على خليفة رسول الله ﷺ - يعني أبا بكر - فقل له: إن علي من الدين كذا وكذا، وفلان من رقيقسي عتيق وفلان، فأتى الرجل خالداً فأخبره، فبعث إلى الدرع فأتى بها وحدث أبا بكر برؤياه فأجاز وصيته. قال: ولا نعلم أحداً أجيزت وصيته بعد موته غير ثابت، رحمه الله، ذكره أبو عمر

(١) ضعيف: البيهقي (٥/ ٣١٦) في الدلائل، ورواه ابن إسحاق مرسلًا كما في سيرة ابن هشام (٤/ ١٥٠، ١٥١).

(٢) يستن: يرح وينشط. اللسان «ستن».

(٣) الطول: بكسر الطاء وتشديد الهمزة وفتح الواو جبل طويل تشد به قائمة الدابة لترعى وتمرح. اللسان «طول».

(٤) البرمة: قدر من حجارة. اللسان «برم».

في «الاستيعاب» (١).

**الثانية:** قوله تعالى: ﴿وَلَا تَجْهَرُوا لَهُ بِالْقَوْلِ﴾ أي لا تخاطبوه: يا محمد، يا أحمد. ولكن: يا نبي الله، يا رسول الله، توقيرا له. وقيل: كان المنافقون يرفعون أصواتهم عند النبي ﷺ، ليقندي بهم ضعفة المسلمين فنهى المسلمون عن ذلك. وقيل: ﴿وَلَا تَجْهَرُوا لَهُ﴾ أي لا تجهروا عليه، كما يقال: سقط لفيه، أي على فيه ﴿كَجَهْرِ بَعْضِكُمْ لِبَعْضٍ﴾ الكاف كاف التشبيه في محل النصب، أي لا تجهروا له جهرًا مثل جهر بعضهم لبعض. وفي هذا دليل على أنهم لم ينهوا عن الجهر مطلقًا حتى لا يسوغ لهم إلا أن يكلموه بالهمس والمخافتة، وإنما نهوا عن جهر مخصوص مقيد بصفة، أعني الجهر المنعوت بمماثلة ما قد اعتادوه منهم فيما بينهم، وهو الخلو من مراعاة أبهة النبوة وجلالة مقدارها وانحطاط سائر الرتب وإن جلت عن رتبها. ﴿أَنْ تَحْبَطَ أَعْمَالِكُمْ وَأَنْتُمْ لَا تَشْعُرُونَ﴾ أي من أجل أن تحبط، أي تبطل، هذا قول البصريين. وقال الكوفيون: أي لثلاث تحبط أعمالكم.

**الثالثة:** معنى الآية الأمر بتعظيم رسول الله ﷺ وتوقيره، وخفض الصوت بحضرته وعند مخاطبته، أي إذا نطق ونطقتم فعليكم ألا تبلغوا بأصواتكم وراء الحد الذي يبلغه بصوته، وأن تغضوا منها بحيث يكون كلامه غالبًا لكلامكم، وجهره باهرا لجهركم، حتى تكون مزيته عليكم لائحة، وسابقته واضحة، وامتيازه عن جمهوركم كشية الأبلق. لا أن تغمروا صوته بلفظكم، وتبهروا منطقته بصخبكم. وفي قراءة ابن مسعود «لا ترفعوا بأصواتكم». وقد كره بعض العلماء رفع الصوت عند قبره عليه السلام. وكره بعض العلماء رفع الصوت في مجالس العلماء تشريفا لهم، إذ هم ورثة الأنبياء.

**الرابعة:** قال القاضي أبو بكر بن العربي (٢): حومة النبي ﷺ ميتا كحرمته حيا، وكلامه المأثور بعد موته في الرفعة مثال كلامه المسموع من لفظه، فإذا قرئ كلامه، وجب على كل حاضر ألا يرفع صوته عليه، ولا يعرض عنه، كما كان يلزمه ذلك في مجلسه عند تلفظه به. وقد نبه الله سبحانه على دوام الحرمة المذكورة على مرور الأزمنة بقوله تعالى: ﴿وَإِذَا قُرِئَ الْقُرْآنُ فَاسْتَمِعُوا لَهُ وَأَنْصِتُوا﴾ [الاعراف: ٢٠٤]. وكلامه ﷺ من الوحي، وله من الحكمة مثل ما للقرآن، إلا معاني مستثناة، يبينها في كتب الفقه.

**الخامسة:** ليس الغرض برفع الصوت ولا الجهر ما يقصد به الاستخفاف والاستهانة، لأن ذلك كفر والمخاطبون مؤمنون. وإنما الغرض صوت هو في نفسه والمسموع من جرمه غير مناسب لما يهاب به العظماء ويوقر الكبراء، فيتكلف الغض منه ورده إلى حد يميل به إلى ما يستبين فيه المأمور به من التعزير والتوقير. ولم يتناول النهي أيضا رفع الصوت الذي يتأذى به رسول الله ﷺ، وهو ما كان منهم في حرب أو مجادلة معاند أو إرهاب عدو أو ما أشبه ذلك، ففي الحديث أنه قال عليه السلام للعباس بن عبدالمطلب لما انهزم الناس يوم حنين: «اصرخ بالناس» (٣)، وكان العباس أجهر الناس صوتا. يروى أن غارة أتتهم يوما فصاح العباس: يا صباحاه! فأسقطت الحوامل لشدة صوته، وفيه

(١) ضعيف: قال الهيثمي (٩/ ٣٢٢) في المجمع: «رواه الطبراني وبنث ثابت بن قيس لم أعرفها ببقية رجاله ثقات»، وصححه الحاكم (٣/ ٢٣٥) في المستدرک، وانظر: الاستيعاب بهامش الإصابة (١/ ١٩٢).

(٢) أحكام القرآن (٤/ ١٧١٤) للقاضي ابن العربي المالكي.

(٣) صحيح: وقد سبق قريبا.

يقول نابعة بني جعدة:

زَجْرُ أَبِي عُرْوَةَ السَّبَاعِ إِذَا أَشْفَقَ أَنْ يَخْتَلِطَنَّ بِالْغَنَمِ

زعمت الرواة أنه كان يزجر السباع عن الغنم فيفتق مرارة السبع في جوفه .

السادسة: قال الزجاج ﴿أَنْ تَحْبِطَ أَعْمَالُكُمْ﴾ التقدير لأن تحبط، أي فتحبط أعمالكم، فاللام المقدره لام الصيرورة وليس قوله ﴿أَنْ تَحْبِطَ أَعْمَالُكُمْ وَأَنْتُمْ لَا تَشْعُرُونَ﴾ بموجب أن يكفر الإنسان وهو لا يعلم، فكما لا يكون الكافر مؤمنا إلا باختياره الإيمان على الكفر، كذلك لا يكون المؤمن كافرا من حيث لا يقصد إلى الكفر ولا يختاره بإجماع. كذلك لا يكون الكافر كافرا من حيث لا يعلم.

﴿إِنَّ الَّذِينَ يَغُضُّونَ أَصْوَاتَهُمْ عِنْدَ رَسُولِ اللَّهِ أُولَٰئِكَ الَّذِينَ امْتَحَنَ اللَّهُ قُلُوبَهُمْ لِلتَّقْوَىٰ لَهُمْ مَغْفِرَةٌ وَأَجْرٌ عَظِيمٌ﴾

قوله تعالى: ﴿إِنَّ الَّذِينَ يَغُضُّونَ أَصْوَاتَهُمْ عِنْدَ رَسُولِ اللَّهِ﴾ أي يخفضون أصواتهم عنده إذا تكلموا إجلالا له، أو كلموا غيره بين يديه إجلالا له . قال أبو هريرة : لما نزلت ﴿لَا تَرْفَعُوا أَصْوَاتَكُمْ﴾ قال أبو بكر رضي الله عنه: والله لا أرفع صوتي إلا كأخي السرار<sup>(١)</sup>. وذكر سنيد قال: حدثنا عباد بن العوام عن محمد بن عمرو عن أبي سلمة قال: لما نزلت ﴿لَا تَقْدُمُوا بَيْنَ يَدَيِ اللَّهِ وَرَسُولِهِ﴾ [الحجرات: ١] قال أبو بكر: والذي بعثك بالحق لا أكلمك بعد هذا إلا كأخي السرار<sup>(٢)</sup>. وقال عبدالله بن الزبير: لما نزلت ﴿لَا تَرْفَعُوا أَصْوَاتَكُمْ﴾ ما حدث عمر عند النبي ﷺ بعد ذلك فسمع كلامه حتى يستفهمه مما يخفض، فنزلت ﴿إِنَّ الَّذِينَ يَغُضُّونَ أَصْوَاتَهُمْ عِنْدَ رَسُولِ اللَّهِ أُولَٰئِكَ الَّذِينَ امْتَحَنَ اللَّهُ قُلُوبَهُمْ لِلتَّقْوَىٰ﴾<sup>(٣)</sup>. قال الفراء: أي أخلصها للتقوى. وقال الأخفش: أي اختصها للتقوى<sup>(٤)</sup>. وقال ابن عباس: ﴿امْتَحَنَ اللَّهُ قُلُوبَهُمْ لِلتَّقْوَىٰ﴾ طهرهم من كل قبيح، وجعل في قلوبهم الخوف من الله والتقوى. وقال عمر رضي الله عنه: أذهب عن قلوبهم الشهوات<sup>(٥)</sup>. والامتحان افتعال من محنت الأديم محنا حتى أوسعته. فمعنى ﴿امْتَحَنَ اللَّهُ قُلُوبَهُمْ لِلتَّقْوَىٰ﴾ وسعها وشرحها للتقوى. وعلى الأقوال المتقدمة: امتحن قلوبهم فأخلصها، كقولك: امتحنت الفضة أي اختبرتها حتى خلصت. ففي الكلام حذف يدل عليه الكلام، وهو الإخلاص. وقال أبو عمرو: كل شيء جهده فقد محنته. وأنشد:

أنت رذائياً بادياً كلالها قد محنت واضطربت أطلها

﴿لَهُمْ مَغْفِرَةٌ وَأَجْرٌ عَظِيمٌ﴾

(١) السرار: المسارة، أي: كصاحب السرار، أو كمثل المسارة لخفض صوته. اللسان « سرر » .

(٢) قد رواه الهيثمي (٧/ ١٠٨) في المجمع وعزاه للبخاري، وفيه حصين بن عمر الحمصي، وهو متروك وقد وثقه العجلي، وبقية رجاله رجال الصحيح .

(٣) صحيح: وقد سبق .

(٤) ذكره البيهقي (٧/ ٣٤٠) في تفسيره غير مستند، وكذا قال الشوكاني (٧/ ٩) في فتح القدير .

(٥) منقطع: بين عمر ومجاهد، وذكره ابن كثير (٧/ ٢٨٤، ٢٨٥) في تفسيره، وعزاه السيوطي (٦/ ٨٩) في الدر

لاحمد في الزهد .

## ﴿ إِنَّ الَّذِينَ ينادُونَكَ مِنَ وَّرَاءِ الْحُجُرَاتِ أَكْثَرُهُمْ لَا يَعْلَمُونَ ﴾

قوله تعالى: ﴿ إِنَّ الَّذِينَ ينادُونَكَ مِنَ وَّرَاءِ الْحُجُرَاتِ ﴾ قال مجاهد وغيره: نزلت في أعزاب بني تميم، قدم الوفد منهم على النبي ﷺ، فدخلوا المسجد ونادوا النبي ﷺ من وراء حجراته: أن اخرج إلينا، فإن مدحنا زين، وذمنا شين. وكانوا سبعين رجلا قدموا الفداء ذراري لهم، وكان النبي ﷺ نام للقائلة. وروي أن الذي نادي الأقرع بن حابس، وأنه القائل: إن مدحي زين، وإن ذمي شين، فقال النبي ﷺ: «ذاك الله» (١). ذكره الترمذي عن البراء بن عازب أيضا (٢). وروى زيد بن أرقم فقال: أتى أناس النبي ﷺ فقال بعضهم لبعض: انطلقوا بنا إلى هذا الرجل، فإن يكن نبيا فنحن أسعد الناس باتباعه، وإن يكن ملكا نعش في جنبه، فأتوا النبي ﷺ فجعلوا ينادونه وهو في حجراته: يا محمد، يا محمد، فأنزل الله تعالى هذه الآية. قيل: إنهم كانوا من بني تميم (٣). قال مقاتل كانوا تسعة عشر: قيس بن عاصم، والزبرقان بن بدر، والأقرع بن حابس، وسويد بن هاشم، وخالد بن مالك، وعطاء بن حابس، والقعقاع بن معبد، ووكيع بن وكيع، وعيينة بن حصن وهو الأحمق المطاع، وكان من الجرارين يجر عشرة آلاف قناة، أي يتبعه، وكان اسمه حذيفة وسمي عينه لشره (٤) كان في عينيه ذكر عبدالرزاق في عينه هذا: أنه الذي نزل فيه ﴿وَلَا تَطْعَمُ مِنْ أَغْلَانِ قَلْبِهِ عَنْ ذِكْرِنَا﴾ (٥) [الكهف: ٢٨]. وقد مضى في آخر «الأعراف» من قوله لعمري رضي الله عنه ما فيه كفاية، ذكره البخاري (٦). وروي أنهم وفدوا وقت الظهيرة ورسول الله ﷺ راقد، فجعلوا ينادونه: يا محمد يا محمد، اخرج إلينا، فاستيقظ وخرج، ونزلت. وسئل رسول الله ﷺ فقال: «هم جفأة بني تميم لولا أنهم من أشد الناس قتالا للأعور الدجال لدعوت الله عليهم أن يهلكهم» (٧). والحجرات جمع الحجرة، كالعُرْفَات جمع عُرْفَة، والظُّلُمَات جمع ظُلْمَة. وقيل: الحجرات جمع الحجر، والحجر جمع حجرة، فهو جمع الجمع. وفيه لغتان: ضم الجيم وفتحها. قال:

ولما رأونا بادياً ركبانا  
على موطن لا نخلط الحدَّ بالهزل

والحجرة: الرقعة من الأرض المحجورة بحائط يحوط عليها. وحظيرة الإبل تسمى الحجرة، وهي فعلة بمعنى مفعولة. وقرأ أبو جعفر بن القعقاع «الحجرات» بفتح الجيم استقلا للضميتين. وقرئ «الحجرات» بسكون الجيم (٨) تخفيفا. وأصل الكلمة المنع. وكل ما منعت أن يوصل إليه فقد حجرت

(١) مرسل : وانظر التالي .

(٢) صحيح : الترمذي (٣٢٦٧) في تفسير القرآن و صححه الألباني هناك .

(٣) حسن : الهشمي (٧ / ١٠٨) في المجمع وعزاه للطبراني وفيه داود بن راشد، وثقه ابن حبان وضعفه ابن معين ، وبقية رجاله ثقات . وحسنه السيوطي (ص٣٧٨) في لباب النقول .

(٤) الشتر : انقلاب جفن العين . اللسان «شتر» .

(٥) تفسير عبد الرزاق (٦ / ٣٩٥) .

(٦) صحيح : وقد سبق .

(٧) موضوع : مرسل ، ثم فيه يعلى بن الأشدق كذاب متروك كما في الجرح والتعديل (٩ / ٣٠٣) ، وعزاه السيوطي

(٦ / ٩٠) في الدر لابن مردويه ، وابن منده .

(٨) قراءة عشرية : تقريب النشر (ص١٧٥) .

عليه. ثم يحتمل أن يكون المتادي بعضا من الجملة فهذا قال: ﴿أَكْثَرُهُمْ لَا يَعْقِلُونَ﴾ أي إن الذين ينادونك من جملة قوم الغالب عليهم الجهل.

﴿وَلَوْ أَنَّهُمْ صَبَرُوا حَتَّى تَخْرُجَ إِلَيْهِمْ لَكَانَ خَيْرًا لَّهُمْ وَاللَّهُ غَفُورٌ رَحِيمٌ﴾

أي: لو انتظروا خروجك لكان أصلح في دينهم ودنياهم. وكان ﷺ لا يحتجب عن الناس إلا في أوقات يشتغل فيها بمهمات نفسه، فكان إزعاجه في تلك الحالة من سوء الأدب وقيل: كانوا قد جاؤوا شفعا في أسارى بني عكر فاعتق رسول الله ﷺ نصفهم، وفادى على النصف. ولو صبروا لاعتق جميعهم بغير فداء. ﴿وَاللَّهُ غَفُورٌ رَحِيمٌ﴾.

﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا إِنْ جَاءَكُمْ فَاسِقٌ بِنَبَأٍ فَتَبَيَّنُوا أَنْ تُصِيبُوا قَوْمًا بِجَهْلَةٍ فَتُصْحَبُوا عَلَيَّ مَا فَعَلْتُمْ نَادِمِينَ﴾

فيه سبع مسائل:

الاولى: قوله تعالى: ﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا إِنْ جَاءَكُمْ فَاسِقٌ بِنَبَأٍ فَتَبَيَّنُوا﴾ قيل: إن هذه الآية نزلت في الوليد بن عقبة بن أبي معيط. وسبب ذلك ما رواه سعيد عن قتادة أن النبي ﷺ بعث الوليد بن عقبة مصدقا<sup>(١)</sup> إلى بني المصطلق، فلما أبصروه أقبلوا نحوه فهابهم - في رواية: لإحنة<sup>(٢)</sup> كانت بينه وبينهم، فرجع إلى النبي ﷺ فأخبره أنهم قد ارتدوا عن الإسلام. فبعث نبي الله ﷺ خالد بن الوليد وأمره أن يتثبت ولا يعجل، فانطلق خالد حتى أتاهم ليلا، فبعث عيونه فلما جاؤوا أخبروا خالدا أنهم متمسكون بالإسلام، وسمعوا أذانهم وصلاتهم، فلما أصبحوا أتاهم خالد ورأى صحة ما ذكروه، فعاد إلى نبي الله ﷺ فأخبره، فنزلت هذه الآية، فكان يقول نبي الله ﷺ: «التأني من الله والعجلة من الشيطان»<sup>(٣)</sup>. وفي رواية: أن النبي ﷺ بعثه إلى بني المصطلق بعد إسلامهم، فلما سمعوا به ركبوا إليه، فلما سمع بهم خافهم، فرجع إلى رسول الله ﷺ فأخبره أن القوم قد هموا بقتله، ومنعوا صدقاتهم. فهم رسول الله ﷺ بغزوهم، فبينما هم كذلك إذ قدم وفدهم على رسول الله ﷺ فقالوا: يا رسول الله، سمعنا برسولك فخرجنا إليه لنكرمه، ونؤدي إليه ما قبلنا من الصدقة، فاستمر راجعا، وبلغنا أنه يزعم لرسول الله أنا خرجنا لقتاله، والله ما خرجنا لذلك، فأنزل الله تعالى هذه الآية. وسمي الوليد فاسقا أي كاذبا<sup>(٤)</sup>. قال ابن زيد ومقاتل وسهل بن عبدالله:

(١) مصدقا: يأخذ الصدقة.

(٢) الإحنة: الحقد في الصدر. اللسان «أحن».

(٣) مرسل: الطبري (٢٦ / ١٢٧) في تفسيره ولا يصح.

(٤) ضعيف كسابقه: وقد حمل الشيخ (محب الدين الخطيب - رحمه الله، على هذه القصة حملا شديدا، ففي الموصول منها إلى أم سلمة ثابت مولى أم سلمة وهو مجهول.

وموسى بن عبيدة الربذي وهو ضعيف جدا.

وباقى الأسانيد مقطوعة على التابعين كقتادة ومجاهد وابن أبي ليلي وغيرهم ممن أوقفوا القصة على أنفسهم دون

وقفها على الصحابة أو رفعها إلى النبي ﷺ.

الفاسق الكذاب. وقال أبو الحسن الوراق: هو المعلن بالذنب. وقال ابن طاهر: الذي لا يستحي من الله. وقرأ حمزة والكسائي «فتبتوا»<sup>(١)</sup> من التبت. الباقون «فصَيَّبُوا» من التبيين «أَنْ تُصَيَّبُوا قَوْمًا» أي لثلاث تصييبوا، ف «أَنْ» في محل نصب بإسقاط الخافض. «بِجَهَالَةٍ» أي بخطأ «فَصَيَّبُوا عَلَيَّ مَا فَعَلْتُمْ نَادِمِينَ» على العجلة وترك الثاني.

الثانية: في هذه الآية دليل على قبول خبر الواحد إذا كان عدلا، لأنه إنما أمر فيها بالتثبت عند نقل خبر الفاسق. ومن ثبت فسقه بطل قوله في الأخبار إجماعا، لأن الخبر أمانة والفسق قرينة يبطلها. وقد استثنى الإجماع من جملة ذلك ما يتعلق بالدعوى والجحود، وإثبت حق مقصود على الغير، مثل أن يقول: هذا عبدي، فإنه يقبل قوله. وإذا قال: قد أنفذ فلان هذا لك هدية، فإنه يقبل ذلك. وكذلك يقبل في مثله خبر الكافر. وكذلك إذا أقر لغيره بحق على نفسه فلا يبطل إجماعا. وأما في الإنشاء على غيره فقال الشافعي وغيره: لا يكون وليا في النكاح. وقال أبو حنيفة ومالك: يكون وليا، لأنه يلي مالها فيلبي بضعها. كالعدل، وهو وإن كان فاسقا في دينه إلا أن غيرته موفرة وبها يحمي الحريم، وقد يبذل المال ويصون الحرمه، وإذا ولي المال فالنكاح أولى.

الثالثة: قال ابن العربي<sup>(٢)</sup>: ومن العجب أن يجوز الشافعي ونظراؤه إمارة الفاسق. ومن لا يؤتمن على حبة مال كيف يصح أن يؤتمن على قنطار دين. وهذا إنما كان أصله أن الولاة الذين كانوا يصلون بالناس لما فسدت أديانهم ولم يمكن ترك الصلاة وراءهم، ولا استطيعت إزالتهم صُلِّيَ معهم ووراءهم، كما قال عثمان: الصلاة أحسن ما يفعل الناس، فإذا أحسنوا فأحسن، وإذا أسأؤوا فاجتنب إساءتهم. ثم كان من الناس من إذا صلى معهم تقيية أعادوا الصلاة لله، ومنهم من كان يجعلها صلاته. وبوجوب الإعادة أقول، فلا ينبغي لأحد أن يترك الصلاة من-لا يرضى من الأئمة، ولكن يعيد سرا في نفسه؛ ولا يؤثر ذلك عند غيره.

الرابعة: وأما أحكامه إن كان واليا فينفذ منها ما وافق الحق ويرد ما خالفه، ولا ينقض حكمه الذي أمضاه بحال، ولا تلتفتوا إلى غير هذا القول من رواية تؤثر أو قول يحكى، فإن الكلام كثير والحق ظاهر.

الخامسة: لا خلاف في أنه يصح أن يكون رسولا عن غيره في قول يبلغه أو شيء يوصله، أو إذن يعلمه، إذا لم يخرج عن حق المرسل والمبلغ، فإن تعلق به حق لغيرهما لم يقبل قوله. وهذا جائز للضرورة الداعية إليه، فإنه لو لم يتصرف بين الخلق في هذه المعاني إلا العدول لم يحصل منها شيء لعدمهم في ذلك. والله أعلم.

السادسة: وفي الآية دليل على فساد من قال: إن المسلمين كلهم عدول حتى تثبت الجرحه، لأن الله تعالى أمر بالتثبت قبل القبول، ولا معنى للتثبت بعد إنفاذ الحكم، فإن حكم الحاكم قبل التثبت

= ومهما قبل من صحة الإسناد، فالمتن منكر تشم منه رائحة الشيعة الذين افتروا على الوليد - رضي الله عنه - هذا الأمر.

وانظر العواصم (ص ٩٨ - ١١٠).

(١) قراءة عشرية: تقريب النشر (ص ١٠٦).

(٢) أحكام القرآن (٤ / ١٧١٥) للقاظمي ابن العربي المالكي.

فقد أصاب المحكوم عليه بجهالة.

السابعة: فإن قضى بما يغلب على الظن لم يكن ذلك عملا بجهالة، كالقضاء بالشاهدين العدلين، وقبول قول العالم المجتهد. وإنما العمل بالجهالة قبول قول من لا يحصل غلبة الظن بقوله. ذكر هذه المسألة القشيري، والذي قبلها المهدي.

﴿وَأَعْلَمُوا أَنَّ فِيكُمْ رَسُولَ اللَّهِ لَوْ يُطِيعُكُمْ فِي كَثِيرٍ مِّنَ الْأَمْرِ لَعَنِتُّمْ وَلَكِنَّ اللَّهَ حَبَّبَ إِلَيْكُمُ الْإِيمَانَ وَزَيَّنَهُ فِي قُلُوبِكُمْ وَكَرَّهَ إِلَيْكُمُ الْكُفْرَ وَالْفُسُوقَ وَالْعِصْيَانَ أُولَٰئِكَ هُمُ الرَّاشِدُونَ ﴿٣٩﴾ فَضَلًا مِّنَ اللَّهِ وَنِعْمَةً وَاللَّهُ عَلِيمٌ حَكِيمٌ ﴿٤٠﴾﴾

قوله تعالى: ﴿وَأَعْلَمُوا أَنَّ فِيكُمْ رَسُولَ اللَّهِ﴾ فلا تكذبوا، فإن الله يعلمه أنباءكم فتفتضحون ﴿لَوْ يُطِيعُكُمْ فِي كَثِيرٍ مِّنَ الْأَمْرِ لَعَنِتُّمْ﴾ أي لو تسارع إلى ما أردتم قبل وضوح الأمر لئلاكم مشقة وإثم، فإنه لو قتل القوم الذين سعى بهم الوليد بن عقبة إليه لكان خطأ، ولعنت من أراد إيقاع الهلاك بأولئك القوم لعداوة كانت بينه وبينهم. ومعنى طاعة الرسول لهم: الائتمار بما يأمر به فيما يبلغونه عن الناس والسماع منهم. والعنت الإثم، يقال: عنت الرجل. والعنت أيضا الفجور والزنا، كما في سورة «النساء» (١). والعنت أيضا الوقوع في أمر شاق، وقد مضى في آخر «التوبة» القول في ﴿عَنَّتُمْ﴾ [التوبة: ١٢٨] بأكثر من هذا. ﴿وَلَكِنَّ اللَّهَ حَبَّبَ إِلَيْكُمُ الْإِيمَانَ﴾ هذا خطاب للمؤمنين المخلصين الذين لا يكذبون النبي ﷺ ولا يخبرون بالباطل، أي جعل الإيمان أحب الأديان إليكم. ﴿وَزَيَّنَهُ﴾ بتوفيقه. ﴿فِي قُلُوبِكُمْ﴾ أي حسنه إليكم حتى اخترتموه. وفي هذا ردُّ على القدرية والإمامية وغيرهم، حسب ما تقدم في غير موضع. فهو سبحانه المنفرد بخلق ذوات الخلق وخلق أفعالهم وصفاتهم واختلاف ألسنتهم وألوانهم، لا شريك له. ﴿وَكَرَّهَ إِلَيْكُمُ الْكُفْرَ وَالْفُسُوقَ وَالْعِصْيَانَ﴾ قال ابن عباس: يريد به الكذب خاصة. وقاله ابن زيد. وقيل: كل ما خرج عن الطاعة، مشتق من فسقت الرطبة إذا خرجت من قشرها. والفارة من جحرها. وقد مضى في «البقرة» القول في مستوفى (٢). والعصيان جمع المعاصي. ثم انتقل من الخطاب إلى الخبر فقال: ﴿أُولَٰئِكَ﴾ يعني هم الذين وفقهم الله فحجب إليهم الإيمان وكره إليهم الكفر أي قبحه عندهم ﴿هُمُ الرَّاشِدُونَ﴾ كقوله تعالى: ﴿وَمَا آتَيْتُم مِّن زَكَاةٍ تُرِيدُونَ وَجْهَ اللَّهِ فَأُولَٰئِكَ هُمُ الْمُضْمِرُونَ﴾ [الروم: ٣٩]. قال النابغة:

يا دارَ مِيَّةَ بِالْعَلِيَاءِ فَالْسِنْدِ      أَقَوْتُ وَطَالَ عَلَيْهَا سَالِفُ الْأَمَدِ

والرشد: الاستقامة على طريق الحق مع تصلب فيه، من الرشاد وهي الصخرة. قال أبو الوازع: كل صخرة رشادة. وأنشد:

وغير مُقَلَّدٍ وَمَوْشِمَاتٍ      صَلِينَ الضَّوْءَ مِنْ صَمِّ الرِّشَادِ

﴿فَضَلًا مِّنَ اللَّهِ وَنِعْمَةً﴾ أي فعل الله ذلك بكم فضلا، أي الفضل والنعمة، فهو مفعول له. ﴿وَاللَّهُ

(١) عند الآية (٢٥) من سورة النساء.

(٢) عند الآية (٢٦) وقول ابن زيد صحيح رواه الطبري (٢٦ / ١٣٠) في تفسيره.

عَلِيمٌ ﴿ بِمَا يَصْلِحُكُمْ ﴾ ﴿ حَكِيمٌ ﴾ فِي تَدْبِيرِكُمْ .

﴿ وَإِنْ طَائِفَتَانِ مِنَ الْمُؤْمِنِينَ اقْتَتَلُوا فَأَصْلِحُوا بَيْنَهُمَا فَإِنْ بَغَتْ إِحْدَاهُمَا عَلَى الْأُخْرَى فَقَاتِلُوا الَّتِي  
تَبَغَى حَتَّى تَقِيَّ إِلَى أَمْرِ اللَّهِ فَإِنْ فَاءَتْ فَأَصْلِحُوا بَيْنَهُمَا بِالْقَدْلِ وَأَقْسِطُوا إِنَّ اللَّهَ يُحِبُّ الْمُقْسِطِينَ ﴿٥﴾ ﴾

فيه عشر مسائل :

الأولى : قوله تعالى : ﴿ وَإِنْ طَائِفَتَانِ مِنَ الْمُؤْمِنِينَ اقْتَتَلُوا فَأَصْلِحُوا بَيْنَهُمَا ﴾ روى المعتمر بن سليمان عن  
أنس بن مالك قال : قلت : يا نبي الله ، لو أتيت عبدالله بن أبي؟ فانطلق إليه النبي ﷺ ، فركب  
حماراً وانطلق المسلمون يمشون ، وهي أرض سيخة ، فلما أتاه النبي ﷺ قاله : إليك عني فوالله لقد  
أذاني تنن حمارك . فقال رجل من الأنصار : والله لحمار رسول الله ﷺ أطيب ريحا منك . فغضب  
لعبدالله رجل من قومه ، وغضب لكل واحد منهما أصحابه ، فكان بينهم حرب بالجرید والأيدي  
والنعال ، فبلغنا أنه أنزل فيهم هذه الآية (١) . وقال مجاهد : نزلت في الأوس والخزرج (٢) . قال  
مجاهد : تقاتل حيان من الأنصار بالعصي والنعال فنزلت الآية (٣) . ومثله عن سعيد بن جبیر : أن  
الأوس والخزرج كان بينهم على عهد رسول الله ﷺ قتال بالسعف والنعال ونحوه ، فأنزل الله هذه  
الآية فيهم (٤) . وقال قتادة : نزلت في رجلين من الأنصار كانت بينهما مداراة (٥) في حق بينهما فقال  
أحدهما : لأخذن حقي عنوة (٦) ، لكثرة عسيرته . ودعاه الآخر إلى أن يحاكمه إلى رسول الله ﷺ  
فأبى أن يتبعه ، فلم يزل الأمر بينهما حتى تواقعا وتناول بعضهم بعضا بالأيدي والنعال والسيوف ،  
فنزلت هذه الآية (٧) . وقال الكلبي : نزلت في حرب سُمير وحاطب ، وكان سُمير قتل حاطبا ،  
فاقتتل الأوس والخزرج حتى أتاهم النبي ﷺ ، فنزلت . وأمر الله نبيه ﷺ والمؤمنين أن يصلحوا  
بينهما . وقال السدي (٨) : كانت امرأة من الأنصار يقال لها : «أم زيد» تحت رجل من غير الأنصار ،  
فتخاصمت مع زوجها ، أرادت أن تزور قومها فحسبها زوجها وجعلها في عتيقة (٩) لا يدخل عليها  
أحد من أهلها ، وأن المرأة بعثت إلى قومها ، فجاء قومها فأنزلوها لينطلقوا بها ، فخرج الرجل  
فاستغاث أهله فخرج بنو عمه ليحولوا بين المرأة وأهلها ، فتدافعوا وتجادوا (١٠) بالنعال ، فنزلت  
الآية . والطفافة تتناول الرجل الواحد والجمع والاثنين ، فهو مما حمل على المعنى دون اللفظ ، لأن

(١) متفق عليه : البخاري (٢٦٩١) في الصلاة ، ومسلم (١٧٩٩) في الجهاد

(٢) - (٤) مراسيل : ورواها الطبري (٢٦ / ١٣٢ ، ١٣٣) في تفسيره .

(٥) المداراة : التدافع في الخصومة والاختلاف . اللسان «درا» .

القهر .

الطبري (٢٦ / ١٣٢) في تفسيره .

وفيه ضعيف : السابق (٢٦ / ١٣٢) وفيه ابن حميد : منهم ، وانظر : «لباب النقول (ص ١٨١) .

الغرفة في الطبقات العليا من الدار . اللسان «علا» .

التضارب والتقاتل . اللسان «جلد» .

الطائفتين في معنى القوم والناس. وفي قراءة عبدالله «حتى يفيئوا إلى أمر الله فإن فاؤوا فخذوا بينهم بالقسط». وقرأ ابن أبي عسلة «اقتلتنا» على لفظ الطائفتين. وقد مضى في آخر «التوبة» القول فيه. وقال ابن عباس في قوله عز وجل ﴿وَلْيَشْهَدْ عَذَابُهُمَا طَائِفَةٌ مِّنَ الْمُؤْمِنِينَ﴾ [النور: ٢] قال: الواحد فما فوقه، والطائفة من الشيء القطعة منه. ﴿فَأَصْلِحُوا بَيْنَهُمَا﴾ بالدعاء إلى كتاب الله لهما أو عليهما. ﴿فَإِن بَغَتْ إِحْدَاهُمَا عَلَى الْأُخْرَى﴾ تعدت ولم تجب إلى حكم الله وكتابه. والبغي: التطاول والفساد. ﴿فَقَاتِلُوا الَّتِي تَبَغَى حَتَّى تَقِيءَ إِلَى أَمْرِ اللَّهِ﴾ أي ترجع إلى كتابه. ﴿فَإِن فَاءَتْ﴾ أي فإن رجعت ﴿فَأَصْلِحُوا بَيْنَهُمَا بِالْعَدْلِ﴾ أي احملاهما على الإنصاف. ﴿وَأَقْسُوا﴾ أيها الناس فلا تقتتلوا. وقيل: أقسطوا أي اعدلوا. ﴿إِنَّ اللَّهَ يُحِبُّ الْمُقْسِطِينَ﴾ أي العادلين المحقين.

الثانية: قال العلماء: لا تخلو الفتتان من المسلمين في اقتتالهما، إما أن يقتتلا على سبيل البغي منهما جميعا أو لا، فإن كان الأول فالواجب في ذلك أن يمشي بينهما بما يصلح ذات البين ويشمر المكافة والمودعة، فإن لم يتحاجزا ولم يصطلحا وأقامتا على البغي صير إلى مقاتلتهما. وأما إن كان الثاني وهو أن تكون إحداهما باغية على الأخرى، فالواجب أن تقاتل فئة البغي إلى أن تكف وتتوب، فإن فعلت أصلح بينها وبين البغي عليها بالقسط والعدل، فإن التحم القتال بينهما لشبهة دخلت عليهما وكتلتاهما عند أنفسهما محقة، فالواجب إزالة الشبهة بالحجة النيرة والبراهين القاطعة على مرشد الحق، فإن زكبتا من اللجاج ولم تعملتا على شاكلة ما هديتا إليه ونصحتا به من اتباع الحق بعد وضوحه لهما فقد لحقتا بالفئتين الباغيتين. والله أعلم.

الثالثة: في هذه الآية دليل على وجوب قتال الفئة الباغية المعلوم بغيتها على الإمام أو على أحد من المسلمين. وعلى فساد قول من منع من قتال المؤمنين، واحتج بقوله عليه السلام: «قتال المؤمن كفر» (١). ولو كان قتال المؤمن الباغي كفرا لكان الله تعالى قد أمر بالكفر، تعالى الله عن ذلك، وقد قاتل الصديق رضي الله عنه: من تمسك بالإسلام وامتنع من الزكاة، وأمر ألا يتبع مؤلداً، ولا يجهز على جريح، ولم تحل أموالهم، بخلاف الواجب في الكفار. وقال الطبري: لو كان الواجب في كل اختلاف يكون بين الفريقين الهرب منه ولزوم المنازل لما أقيم حد ولا أبطل باطل، ولوجد أهل النفاق والفجور سبيلا إلى استحلال كل ما حرم الله عليهم من أموال المسلمين وسبي نسائهم وسفك دمائهم، بأن يتحزبوا عليهم، ويكف المسلمون أيديهم عنهم، وذلك مخالف لقوله عليه السلام: «خذوا على أيدي سفهائكم» (٢).

الرابعة: قال القاضي أبو بكر بن العربي: هذه الآية أصل في قتال المسلمين، والعمدة في حرب المتأولين، وعليها عول الصحابة، وإليها لجأ الأعيان من أهل الملة، وإياها عني النبي ﷺ بقوله: «تقتل عمارة الفئة الباغية» (٣). وقوله عليه السلام في شأن الخوارج: «يخرجون على خير فرقة» أو «على

(١) صحيح: وقد سبق.

(٢) ضعيف: انظر: ضعيف الجامع (٢٨٢٠) للالباني - رحمه الله

(٣) صحيح: مسلم (٢٩١٦) في الفتن وأشراف الساعة.

حين فرقة» (١)، والرواية الأولى أصح، لقوله عليه السلام: «تقتلهم أولى الطائفتين إلى الحق» (٢). وكان الذي قتلهم علي بن أبي طالب ومن كان معه. فتقرر عند علماء المسلمين وثبت بدليل الدين أن عليا رضي الله عنه كان إماما، وأن كل من خرج عليه باغ وأن قتاله واجب حتى يفيء إلى الحق وينقاد إلى الصلح، لأن عثمان رضي الله عنه قُتل والصحابة برآء من دمه، لأنه منع من قتال من ثار عليه وقال: لا أكون أول من خلف رسول الله ﷺ في أمته بالقتل، فصبر على البلاء، واستسلم للمحنة وفدى بنفسه الأمة. ثم لم يمكن ترك الناس سدي، فعرضت على باقي الصحابة الذين ذكروهم عمر في الشوري، وتدافعوها، وكان علي كرم الله وجهه أحق بها وأهلها، فقبلها حوطة على الأمة أن تسفك دماؤها بالتهاجر والباطل، أو يتخرق أمرها إلى ما لا يتحصل. فربما تغير الدين وانقض عمود الإسلام. فلما بويغ له طلب أهل الشام في شرط البيعة التمكّن من قتلة عثمان وأخذ القود منهم، فقال لهم علي رضي الله عنه: ادخلوا في البيعة واطلبوا الحق تصلوا إليه. فقالوا: لا تستحق بيعة وقتلة عثمان معك تراهم صباحاً ومساءً. فكان علي في ذلك أسد رأيا وأصوب قيلا، لأن عليا لو تعاطى القود منهم لتعصبت لهم قبائل وصارت حربا ثالثة، فانتظر بهم أن يستوثق الأمر وتنعقد البيعة، ويقع الطلب من الأولياء في مجلس الحكم، فيجري القضاء بالحق.

ولا خلاف بين الأمة أنه يجوز للإمام تأخير القصاص إذا أدى ذلك إلى إثارة الفتنة أو تشتيت الكلمة. وكذلك جرى لطلحة والزبير، فإنهما ما خلعا عليا من ولاية ولا اعتراضا عليه في ديانة، وإنما رأيا أن البداءة بقتل أصحاب عثمان أولى.

قلت: فهذا قول في سبب الحرب الواقع بينهم. وقال جلة من أهل العلم: إن الوقعة بالبصرة بينهم كانت على غير عزيمة منهم على الحرب بل فجأة، وعلى سبيل دفع كل واحد من الفريقين عن أنفسهم لظنه أن الفريق الآخر قد غدر به، لأن الأمر كان قد انتظم بينهم، وتم الصلح والتفرق على الرضا. فخاف قتلة عثمان رضي الله عنه من التمكين منهم والإحاطة بهم، فاجتمعوا وتشاوروا واختلفوا، ثم اتفقت آراؤهم على أن يفترقوا فريقين، ويبدووا بالحرب سحرة في العسكرين، وتختلف السهام بينهم، ويصبح الفريق الذي في عسكر علي: غدر طلحة والزبير. والفريق الذي في عسكر طلحة والزبير: غدر علي. فتم لهم ذلك على ما دبروه، ونشبت الحرب، فكان كل فريق دافعا لمكرته عند نفسه، ومانعا من الإشاطة (٣) بدمه. وهذا صواب من الفريقين وطاعة لله تعالى، إذ وقع القتال والامتناع منهما على هذه السبيل. وهذا هو الصحيح المشهور. والله أعلم.

الخامسة: قوله تعالى: ﴿فَقَاتِلُوا آلِي بَنِي نَفِيءٍ حَتَّى تَفِيءَ إِلَى أَمْرِ اللَّهِ﴾ أمر بالقتال. وهو فرض على الكفاية إذا قام به البعض سقط عن الباقي، ولذلك تخلف قوم من الصحابة رضي الله عنهم عن هذه المقامات، كسعد بن أبي وقاص وعبدالله بن عمرو ومحمد بن مسلمة وغيرهم. وصوب ذلك علي بن أبي طالب لهم، واعتذر إليه كل واحد منهم بعذر قبله منه. ويروى أن معاوية رضي الله عنه لما أفضى

(١) متفق عليه: البخاري في (٦١٦٣) في الأدب، ومسلم (١٠٦٤) في الزكاة، عن أبي سعيد الخدري - رضي الله عنه.

(٢) صحيح: مسلم (١٠٦٤ / ١٤٩ - ١٥٣) في الزكاة، عن أبي سعيد الخدري - رضي الله عنه.

(٣) الإشاطة: الإملاك. اللسان «شيط».

إليه الأمر، عاتب سعدا على ما فعل، وقال له: لم تكن ممن أصلح بين الفئتين حين اقتتلا، ولا ممن قاتل الفئة الباغية. فقال له سعد: ندمت على تركي قتال الفئة الباغية. فتبين أنه ليس على الكل درك<sup>(١)</sup> فيما فعل، وإنما كان تصرفا بحكم الاجتهاد وإعمالا بمقتضى الشرع. والله أعلم.

السادسة: قوله تعالى: ﴿إِنْ فَاءَتْ فَأَصْلَحُوا بَيْنَهُمَا بِالْعَدْلِ﴾ ومن العدل في صلحهم: ألا يطالبوا بما جرى بينهم من دم ولا مال، فإنه تلف على تأويل. وفي طلبهم تفسير لهم عن الصلح واستشراء<sup>(٢)</sup> في البغي. وهذا أصل في المصلحة. وقد قال لسان الأمة: إن حكمة الله تعالى في حرب الصحابة التعريف منهم لأحكام قتال أهل التأويل، إذ كان أحكام قتال أهل الشرك قد عرفت على لسان الرسول ﷺ وفعله.

السابعة: إذا خرجت على الإمام العدل خارجة باغية ولا حجة لها، قاتلهم الإمام بالمسلمين كافة أو بمن فيه كفاية، ويدعوهم قبل ذلك إلى الطاعة والدخول في الجماعة، فإن أبوا من الرجوع والصلح قوتلوا. ولا يقتل أسيرهم، ولا يتبع مدبرهم، ولا يذفف<sup>(٣)</sup> على جريحهم، ولا تسبي ذراريهم ولا أموالهم. وإذا قتل العادل الباغي، أو الباغي العادل وهو وليه لم يتوارثا. ولا يرث قاتل عمدا على حال. وقيل: إن العادل يرث الباغي، قياسا على القصاص.

الثامنة: وما استهلكه البغاة والخوارج من دم أو مال ثم تابوا لم يؤاخذوا به. وقال أبو حنيفة: يضمنون. وللشافعي قولان. وجه قول أبي حنيفة: أنه إتلاف بعدوان فيلزم الضمان. والمعول في ذلك عندنا أن الصحابة رضي الله عنهم في حرورهم لم يتبعوا مدبرا، ولا ذففوا على جريح، ولا قتلوا أسيرا، ولا ضمنوا نفسا ولا مالا، وهم القدوة.

وقال ابن عمر: قال النبي ﷺ: «يا عبدالله أتدري كيف حكم الله فيمن بغى من هذه الأمة؟» قال: الله ورسوله أعلم. فقال: «لا يجهز على جريحها، ولا يقتل أسيرها، ولا يطلب هاربها، ولا يقسم فيؤها»<sup>(٤)</sup>. فأما ما كان قائما رد بعينه. هذا كله فيمن خرج بتأويل يسوغ له.

وذكر الزمخشري في تفسيره: إن كانت الباغية من قلة العدد بحيث لا منعة لها ضمنت بعد الفيئة ما جنت، وإن كانت كثيرة ذات منعة وشوكة لم تضمن، إلا عند محمد بن الحسن رحمه الله فإنه كان يفتي بأن الضمان يلزمها إذا فاءت. وأما قبل التجمع والتجند أو حين تتفرق عند وضع الحرب أوزارها، فما جنته ضمنت عند الجميع. فحمل الإصلاح بالعدل في قوله: ﴿فَأَصْلَحُوا بَيْنَهُمَا بِالْعَدْلِ﴾ على مذهب محمد واضح منطبق على لفظ التنزيل. وعلى قول غيره: وجهه: أن يحمل على كون الفئة الباغية قليلة العدد. والذي ذكروا أن الغرض إماتة الضغائن وسل الأحقاد دون ضمان الجنائيات، ليس بحسن الطباق المأمور به من أعمال العدل ومراعاة القسط. قال الزمخشري: فإن قلت: لم قرن بالإصلاح الثاني العدل دون الأول؟ قلت: لأن المراد بالاتقتال في أول الآية أن يقتتلا باغيتين أو راكبتي شبهة، وأيتهما كانت

(١) الدرك: التبعة. اللسان «درك».

(٢) استشرى: لجأ وتمادى. اللسان «شرى».

(٣) الذدفف: الإجهار على الجريح وقتله. اللسان «ذفف».

(٤) ضعيف: الهيثمي (٦/٢٤٣) في المجمع، وقال: «رواه البزار، والطبراني في الأوسط»، وقال: «لا يروى

عن النبي ﷺ إلا بهذا الإسناد، وفيه كوثر بن حكيم، ضعيف متروك».

فالذي يجب على المسلمين أن يأخذوا به في شأنهما إصلاح ذات البين وتسكين الدهماء بإراءة الحق والمواظب الشافية ونفي الشبهة، إلا إذا أصرتا فحينئذ تجب المقاتلة، وأما الضمان فلا يتجه. وليس كذلك إذا بغت إحداهما، فإن الضمان متجه على الوجهين المذكورين.

التاسعة: ولو تغلبوا على بلد فأخذوا الصدقات وأقساموا الحدود وحكموا فيهم بالأحكام، لم تكن عليهم الصدقات ولا الحدود، ولا ينقض من أحكامهم إلا ما كان خلافاً للكتاب أو السنة أو الإجماع، كما تنقض أحكام أهل العدل والسنة؛ قاله مطرف وابن الماجشون. وقال ابن القاسم: لا تجوز بحال. وروي عن أصبغ أنه جائز. وروي عنه أيضاً أنه لا يجوز كقول ابن القاسم. وبه قال أبو حنيفة، لأنه عمل بغير حق ممن لا تجوز توليته. فلم يجز كما لو لم يكونوا بغاة. والعمدة لنا: ما قدمناه من أن الصحابة رضي الله عنهم، لما أنجلت الفتنة وارتفع الخلاف بالهدنة والمصلح، لم يعرضوا لأحد منهم في حكم. قال ابن العربي: الذي عندي أن ذلك لا يصلح، لأن الفتنة لما أنجلت كان الإتمام هو التباغي، ولم يكن هناك من يعترضه والله أعلم.

العاشرة: لا يجوز أن ينسب إلى أحد من الصحابة خطأ مقطوع به، إذ كانوا كلهم اجتهدوا فيما فعلوه وأرادوا الله عز وجل، وهم كلهم لنا أئمة، وقد تعبدنا بالكف عما شجر بينهم، والأنا نذكرهم إلا بأحسن الذكر، لحزمة الصحبة ولنهي النبي ﷺ عن سبهم، وأن الله غفر لهم، وأخبر بالرضا عنهم. هذا مع ما قد ورد من الأخبار من طرق مختلفة عن النبي ﷺ أن طلحة شهيد يمشي على وجه الأرض<sup>(١)</sup>، فلو كان ما خرج إليه من الحرب عصياناً لم يكن بالقتل فيه شهيداً. وكذلك لو كان ما خرج إليه خطأ في التأويل وتقصيرا في الواجب عليه، لأن الشهادة لا تكون إلا بقتل في طاعة، فوجب حمل أمرهم على ما بيناه. وما يدل على ذلك ما قد صح وانتشر من أخبار علي بأن قاتل الزبير في النار. وقول: سمعت رسول الله ﷺ يقول: «بشر قاتل ابن صفية بالنار»<sup>(٢)</sup>. وإذا كان كذلك فقد ثبت أن طلحة والزبير غير عاصيين ولا أئمين بالقتال، لأن ذلك لو كان كذلك لم يقل النبي ﷺ في طلحة: «شهيد». ولم يخبر أن قاتل الزبير في النار. وكذلك من قعد غير مخطئ في التأويل. بل صواب أراهم السله الاجتهاد. وإذا كان كذلك لم يوجب ذلك لعنهم والبراءة منهم وتسيقهم، وإبطال فضائلهم وجهادهم، وعظيم فئاتهم في الدين، رضي الله عنهم. وقد سئل بعضهم عن الدماء التي أريقت فيما بينهم فقال: «تلك أمة قد حلت لها ما كسبت ولكم ما كسبتم ولا تسألون عما كانوا يعملون» [البقرة: ١٤١]. وسئل بعضهم عنها أيضاً فقال: تلك دماء طهر الله منها يدي، فلا أخضب بها لساني. يعني في التحرز من الوقوع في خطأ، والحكم على بعضهم بما لا يكون مصيباً فيه. قال ابن فورك: ومن أصحابنا من قال: إن سبيل ما جرت بين الصحابة من المنازعات كسبيل ما جرى بين إخوة يوسف مع يوسف، ثم إنهم لم يخرجوا بذلك عن حد الولاية والنوبة، فكذلك

(١) صحيح: الترمذي (٣٧٣٩) في المناقب، وابن ماجه (١٢٥) في المقدمة، وصححه الألباني، عن جابر - رضي

الله عنه .

(٢) مختلف في تحسine موقوف: الحاكم (٥٥٧٨ - ٥٧٨) موقوفاً، موضوع مرفوع: الطبراني (١/ ١٢٣) برقم

(٢٤٣) في الكبير وفيه محمد بن القاسم الأزدي كذبه أحمد بن حنبل والدارقطني، وفيه حمزة بن عون

المسعودي لم يوثقه غير ابن حبان - رحمه الله .



﴿يَأْتِيهَا الَّذِينَ آمَنُوا لَا يَسْخَرُونَ مِنْ قَوْمِ عَسَىٰ أَنْ يَكُونُوا خَيْرًا مِنْهُمْ وَلَا نِسَاءٌ مِنْ نِسَاءِ عَسَىٰ أَنْ يَكُنَّ خَيْرًا مِنْهُنَّ وَلَا تَلْمِزُوا أَنفُسَكُمْ وَلَا تَنَابَرُوا بِاللُّسْبِ بِنِسِ الْأَسْمُرِ الْفُسُوقُ بَعْدَ الْإِيمَانِ وَمَنْ لَمْ يَتُبْ فَأُولَٰئِكَ هُمُ الظَّالِمُونَ ﴿٣١﴾﴾

قوله تعالى: ﴿يَأْتِيهَا الَّذِينَ آمَنُوا لَا يَسْخَرُونَ مِنْ قَوْمِ عَسَىٰ أَنْ يَكُونُوا خَيْرًا مِنْهُمْ وَلَا نِسَاءٌ مِنْ نِسَاءِ عَسَىٰ أَنْ يَكُنَّ خَيْرًا مِنْهُنَّ﴾

فيه أربع مسائل:

الأولى: قوله تعالى: ﴿يَأْتِيهَا الَّذِينَ آمَنُوا لَا يَسْخَرُونَ مِنْ قَوْمِ عَسَىٰ أَنْ يَكُونُوا خَيْرًا مِنْهُمْ﴾ قيل: عند الله . وقيل: ﴿خَيْرًا مِنْهُمْ﴾ أي معتقدا وأسلم باطنا . والسخرية الاستهزاء . سخرت منه أسخر سخرًا - بالتحريك - ومسخرًا وسخرًا - بالضم، وحكى أبو زيد سخرت به، وهو أردأ اللغتين . وقال الاخفش: سخرت منه وسخرت به، وضحكت منه وضحكت به، وهزئت منه وهزئت به، كل يقال . والاسم السخرية والسخري، وقرئ بهما قوله تعالى: ﴿لِيَتَّخِذَ بَعْضُهُمْ بَعْضًا سُخْرِيًّا﴾ [الزخرف: ٣٢] وقد تقدم . وفلان سُخْرَة، يتسخر في العمل . يقال: خادم سُخْرَة . ورجل سُخْرَة أيضا يسخر منه . وسُخْرَة بفتح الحاء يسخر من الناس .

الثانية: واختلف في سبب نزولها، فقال ابن عباس: نزلت في ثابت بن قيس بن شماس كان في أذنه وقر (١)، فإذا سبقوه الى مجلس النبي ﷺ أوسعوا له إذا أتى حتى يجلس إلى جنبه لسمع ما يقول، فسأقبل ذات يوم وقد فاتته من صلاة الفجر ركعة مع النبي ﷺ، فلما انصرف النبي ﷺ أخذ أصحابه مجالسهم منه، فربض (٢) كل رجل منهم بمجلسه، وعضوا فيه (٣) فلا يكاد يوسع أحد لأحد حتى يظل الرجل لا يجد مجلسا فيظل قائما، فلما انصرف ثابت من الصلاة تخطى رقاب الناس ويقول: تفسحوا تفسحوا، ففسحوا له حتى انتهى إلى النبي ﷺ وبينه وبينه رجل فقال له: تفسح . فقال له الرجل: قد وجدت مجلسا فاجلس فجلس ثابت من خلفه مغضبا، ثم قال: من هذا؟ قالوا فلان، فقال ثابت: ابن فلانة يعيره بها، يعني أما له في الجاهلية، فاستحيا الرجل، فنزلت (٤) . وقال الضحاك: نزلت في وفد بني تميم الذي تقدم ذكرهم في أول «السورة» استهزؤوا بفقراء الصحابة، مثل عمار وخباب وابن فهيرة وبلال وصهيب وسلمان وسالم مولى أبي حذيفة وغيرهم، لما رأوا من رثاثة حالهم، فنزلت في الذين آمنوا منهم . وقال مجاهد: هو سخرية الغني من الفقير (٥) . وقال ابن زيد: لا يسخر من ستر الله عليه ذنوبه ممن كشفه الله، فلعل إظهار ذنوبه في الدنيا خير له في الآخرة (٦) .

= قلت: وأخرجه محمد بن نصر المروزي في تعظيم قدر الصلاة (٣/ ٥٤٣ - ٥٤٥) آثارا ثلاثة، عن علي رضي الله عنه، رواها عنه: طارق بن شهاب، وأبو وائل، وحكيم بن جابر، وانظر: منهاج السنة النبوية لابن تيمية - رحمه الله (٥/ ٢٤٢، ٢٤٨) .

قلت: فالأثر به صحيح هكذا .

(١) وقر: نقل في الأذن . اللسان «وقر» .

(٢) عَضُّوا فيه: لزموه واستمسكوا به - اللسان .

(٣) رواه الواحدى (ص ٣٣٤) في أسباب النزول معلقًا، والبغوي (٧/ ٣٤٣) في تفسيره .

(٤) مرسل: انظر البغوي (٧/ ٣٤٣) في تفسيره . (٦) صحيح إليه: الطبري (٢٦/ ١٣٤) في تفسيره .

وقيل: نزلت في عكرمة بن أبي جهل حين قدم المدينة مسلماً، وكان المسلمون إذا رأوه قالوا ابن فرعون هذه الأمة. فشكا ذلك إلى رسول الله ﷺ فنزلت (١).

وبالجملية فينبغي ألا يجترئ أحد على الاستهزاء بمن يقتحمه بعينه إذا رآه رث الحال أو ذا عاهة في بدنه أو غير لبيب (٢) في محادثته، فلعله أخلص ضميراً وأنقى قلباً ممن هو على ضد صفته، فيظلم نفسه بتحقيق من وقره الله، والاستهزاء بمن عظمه الله. ولقد بلغ بالسلف إفراط توقيهم وتصونهم من ذلك أن قال عمرو بن شرحبيل: لو رأيت رجلاً يرضع عزراً فضحكت منه لخشيت أن أصنع مثل الذي صنع. وعن عبدالله بن مسعود: البلاء موكل بالقول، لو سخرت من كلب لخشيت أن أحول كلباً. و﴿قَوْمٌ﴾ في اللغة للمذكرين خاصة. قال زهير:

وما أدري وسوف إخال أدري أقوم آل حصن أم نساء

وسموا قوماً لأنهم يقومون مع داعيهم في الشدائد. وقيل: إنه جمع قائم، ثم استعمل في كل جماعة وإن لم يكونوا قائمين. وقد يدخل في القوم النساء مجازاً، وقد مضى في «البقرة» بيانه.

الثالثة: قوله تعالى: ﴿وَلَا نِسَاءَ مِّنْ نِّسَاءٍ عَسَىٰ أَنْ يَكُنَّ خَيْرًا مِّنْهُنَّ﴾ أفرد النساء بالذكر لأن السخرية منهن أكثر. وقد قال الله تعالى: ﴿إِنَّا أَرْسَلْنَا نُوحًا إِلَىٰ قَوْمِهِ﴾ [نوح: ١] فشمّل الجميع. قال المفسرون: نزلت في امرأتين من أزواج النبي ﷺ سخرتا من أم سلمة، وذلك أنها ربطت خصريها بسبيبة - وهو ثوب أبيض، ومثلها السب - وسدلت طرفيها خلفها فكانت تجرها، فقالت عائشة لحفصة رضي الله عنهما: انظري ما تجر خلفها كأنه لسان كلب (٣)، فهذه كانت سخرتيهما. وقال أنس وابن زيد: نزلت في نساء النبي ﷺ، عيرن أم سلمة بالقصر (٤). وقيل: نزلت في عائشة، أشارت بيدها إلى أم سلمة، يا نبي الله إنها لقصيرة. وقال عكرمة عن ابن عباس: إن صفية بنت حيي بن أخطب أتت رسول الله ﷺ فقالت: يا رسول الله، إن النساء يعيرنني، ويقلن لي يا يهودية بنت يهوديين فقال رسول الله ﷺ: «هلا قلت إن أبي هارون وإن عمي موسى وإن زوجي محمد». فأنزل الله هذه الآية (٥).

الرابعة: في صحيح الترمذي عن عائشة قالت: حكيت للنبي ﷺ رجلاً، فقال: «ما يسرني أني حكيت رجلاً وأن لي كذا وكذا». قالت فقلت: يا رسول الله، إن صفية امرأة - وقالت بيدها - هكذا، يعني أنها قصيرة. فقال: «لقد مزجت بكلمة لو مزج بها البحر لمزج» (٦). وفي البخاري عن عبدالله بن زمة قال: نهى النبي ﷺ أن يضحك الرجل مما يخرج من الأنف (٧). وقال: «لم يضرب أحدكم امرأته ضرب الفحل ثم لعله يعانقها» (٨). وفي «صحيح مسلم» عن أبي هريرة قال: قال رسول الله ﷺ: «إن الله لا ينظر إلى صوركم وأموالكم ولكن ينظر إلى قلوبكم وأعمالكم» (٩).

(١) لم أهدت إليه مسنداً . (٢) لبيب: حاذق رفيق بكل عمل. اللسان «لبيب» .

(٣، ٤) الواحدى (ص ٣٣٤) في أسباب النزول معلقاً، وكذا البغوي (٧/ ٣٤٤) في تفسيره .

(٥) كذا معلقاً في السابق (ص ٣٣٤) .

(٦) صحيح: الترمذي (٥٢٠٢) في صفة القيامة، وصححه الألباني هناك .

(٧، ٨) صحيح: البخاري (٤٩٤٢) في التفسير، ومسلم (٢٨٥٥) في الجنة وصفة نعيمها وأهلها .

(٩) صحيح: وقد سبق .

وهذا حديث عظيم يترتب عليه ألا يقطع بعيب أحد لما يرى عليه من صور أعمال الطاعة أو المخالفة، فلعل من يحافظ على الأعمال الظاهرة يعلم الله من قلبه وصفا مذموما لا تصح معه تلك الأعمال. ولعل من رأينا عليه تفریطا أو معصية يعلم الله من قلبه وصفا محمودا يغفر له بسببه. فالأعمال أمارات ظنية لا أدلة قطعية. ويترتب عليها عدم الغلو في تعظيم من رأينا عليه أفعالا سالحة، وعدم الاحتقار لمسلم رأينا عليه أفعالا سيئة. بل تحتقر وتذم تلك الحالة السيئة، لا تلك الثنات المسيئة. فتدبر هذا، فإنه نظر دقيق، وبالله التوفيق.

قوله تعالى: ﴿وَلَا تَنَابَرُوا بِالْأَلْقَابِ بِئْسَ الْأَسْمُ الْفُسُوقُ بَعْدَ الْإِيمَانِ وَمَنْ لَمْ يَتُبْ فَأُولَئِكَ هُمُ الظَّالِمُونَ﴾.

فيه ثلاث مسائل :

الأولى: قوله تعالى: ﴿وَلَا تَلْمِزُوا أَنْفُسَكُمْ﴾ اللمز: العيب، وقد مضى في «التوبة» عند قوله تعالى: ﴿وَمِنْهُمْ مَنْ يَلْمِزُكَ فِي الصَّدَقَاتِ﴾ [التوبة: ٥٨]. وقال الطبري: اللمز باليد والعين واللسان والإشارة. والهمز لا يكون إلا باللسان. وهذه الآية مثل قوله تعالى: ﴿وَلَا تَقْتُلُوا أَنْفُسَكُمْ﴾ [النساء: ٢٩] أي لا يقتل بعضكم بعضا، لأن المؤمنين كنفس واحدة، فكأنه يقتل أخيه قاتل نفسه. وكقوله تعالى: ﴿فَسَلِمُوا عَلَى أَنْفُسِكُمْ﴾ [النور: ٦١] يعني يسلم بعضكم على بعض (١). والمعنى: لا يعيب بعضكم بعضا (٢). وقال ابن عباس ومجاهد وقتادة وسعيد بن جبیر: لا يطعن بعضكم على بعض. وقال الضحاك: لا يلعن بعضكم بعضا. وقرئ «ولا تلمزوا» بالضم (٣). وفي قوله ﴿أَنْفُسَكُمْ﴾ تنبيه على أن العاقل لا يعيب نفسه، فلا ينبغي أن يعيب غيره لأنه كنفسه، قال ﷺ: «المؤمنون كجسد واحد إن اشتكى عضو منه تدهى له سائر الجسد بالسهر والحمى» (٤). وقال بكر بن عبدالله المزني: إذا أردت أن تنظر العيوب جحفة فتأمل عيَابًا، فإنه إنما يعيب الناس بفضل ما فيه من العيب. وقال ﷺ: «يبصر أحدكم القذاة في عين أخيه ويدع الجذع في عينه» (٥) وقيل: من سعادة المرء أن يشتغل بعيوب نفسه عن عيوب غيره. قال الشاعر:

المرء إن كان عاقلاً ورعاً      أشغله عن عيوبه ورعُهُ  
كما السقيم المريض يشغله      عن وجع الناس كلهم وجعُهُ

وقال آخر:

لا تكشفن مساوي الناس ما ستروا      فبهتك الله سترأ عن مساويكأ  
واذكر محاسن ما فيهم إذا ذكروا      ولا تعب أحداً منهم بما فيكأ

الثانية: قوله تعالى: ﴿وَلَا تَنَابَرُوا بِالْأَلْقَابِ﴾ النبز بالتحريك اللقب، والجمع الأنباذ. والسنبز بالتسكين المصدر، تقول: نبزه ينبزه نبزا، أي لقبه. وفلان ينبز بالصبيان أي يلقبهم، شدد للكثرة. ويقال النبز والنزب لقب السوء. وتنابروا بالألقاب أي: لقب بعضهم بعضا. وفي الترمذي

(١) ضعيف إلى ابن عباس: الطبري (٢٦/ ١٣٥) في تفسيره من طريق العوفيين وهو صحيح إلى مجاهد وقتادة

(٢) فتح القدير (٧/ ١٨) للشوكاني .

(٣) قراءة عشرية: تقريب النشر (ص ١٢٠).

(٤) متفق عليه: البخاري (٦٠١١) في الأدب، ومسلم (٢٥٨٦) في البر والصلة والأدب .

(٥) ذكره ابن حبان (٥٧٦١) في صحيحه، عن أبي هريرة - رضي الله عنه .

والقذاة: هو ما يقع في العين أو الشراب من تراب أو تبن أو وسخ أو غيرها. النهاية (٤/ ٣٠) لابن الأثير .

عن أبي جبيرة بن الضحاك قال: كان الرجل منا يكون له الاسمين والثلاثة فيدعي ببعضها فعسى أن يكره، فنزلت هذه الآية ﴿وَلَا تَتَّبِعُوا بِالْأَلْقَابِ﴾ . قال هذا حديث حسن<sup>(١)</sup> . وأبو جبيرة هذا هو أخو ثابت بن الضحاك بن خليفة الأنصاري . وأبو زيد سعيد بن الربيع صاحب الهروي ثقة . وفي مصنف أبي داود عنه قال: فينا نزلت هذه الآية، في بني سلمة ﴿وَلَا تَتَّبِعُوا بِالْأَلْقَابِ بِئْسَ الْأَسْمُ الْفُسُوقُ بَعْدَ الْإِيمَانِ﴾ قال: قدم رسول الله ﷺ وليس منا رجل إلا وله اسمان أو ثلاثة، فجعل رسول الله ﷺ يقول يا فلان فيقولون مه يا رسول الله، إنه يغضب من هذا الاسم، فنزلت هذه الآية ﴿وَلَا تَتَّبِعُوا بِالْأَلْقَابِ﴾<sup>(٢)</sup> . فهذا قول . وقول ثان - قال الحسن ومجاهد: كان الرجل يعير بعد إسلامه بكفره : يا يهودي يا نصراني، فنزلت . وروي عن قتادة وأبي العالية وعكرمة<sup>(٣)</sup> . وقال قتادة: هو قول الرجل للرجل: يا فاسق يا منافق، وقاله مجاهد والحسن أيضا<sup>(٤)</sup> ﴿بِئْسَ الْأَسْمُ الْفُسُوقُ بَعْدَ الْإِيمَانِ﴾ أي بئس أن يسمى الرجل كافرا أو زانيا بعد إسلامه وتوبته؛ قاله ابن زيد . وقيل: المعنى أن من لقب أخاه أو سخر منه فهو فاسق . وفي الصحيح «من قال لأخيه يا كافر فقد باء بها أحدهما إن كان كما قال وإلا رجعت عليه»<sup>(٥)</sup> . فمن فعل ما نهى الله عنه من السخرية والهمز والنيز فذلك فسوق وذلك لا يجوز . وقد روي أن أبا ذر رضي الله عنه كان عند النبي ﷺ فنازعه رجل فقال له أبو ذر: يا بن اليهودية، فقال النبي ﷺ: «ما ترى ها هنا أحمر وأسود ما أنت بأفضل منه» يعني بالتقوى، ونزلت ﴿وَلَا تَتَّبِعُوا بِالْأَلْقَابِ﴾<sup>(٦)</sup> . وقال ابن عباس: التناوب بالألقاب أن يكون الرجل قد عمل السيئات ثم تاب، فنهى الله أن يعير بما سلف . يدل عليه ما روي أن النبي ﷺ قال: «من عير مؤمنا بذنب تاب منه كان حقا على الله أن يبتليه به ويفضحه فيه في الدنيا والآخرة»<sup>(٧)</sup> .

**الثالث:** وقع من ذلك مستثني من غلب عليه الاستعمال كالأعرج والأحذب ولم يكن له فيه كسب يجد في نفسه منه عليه، فجزوته الأمة واتفق على قول أهل الملة . قال ابن العربي: وقد ورد لعمر الله من ذلك في كتبهم ما لا أرضاه في صالح جزرة، لأنه صحف «خرزة» فلقب بها . وكذلك قبولهم في محمد بن سليمان الحضرمي: مطين، لأنه وقع في طين ونحو ذلك مما غلب على المتأخرين، ولا أراه سائغا في الدين . وقد كان موسى بن علي بن رباح المصري يقول: لا أجعل أحدا صغرا اسم أبي في حل، وكان الغالب على اسمه التصغير بضم العين . والذي يضبط هذا كله: أن كل

(١) حسن : أبو داود (٤٩٦٢) في الأدب، والترمذي (٣٢٦٨) في تفسير القرآن ، وابن ماجه (٣٧٤١) في الأدب، ورواه الألباني هناك .

(٢) انظر السابق .

(٣) انظر: البغوي (٧ / ٣٤٣) في تفسيره .

(٤) صحيح إلى قتادة والحسن : الطبري (١٣٧ / ٢٦) في تفسيره .

(٥) متفق عليه : البخاري (٦١٠٤) في الأدب ، ومسلم (٦٠) في الإيمان ، عن ابن عمر - رضي الله عنهما .

(٦) منقطع ورجاله ثقات : فيه بكير بن عبد الله المزني لم يسمع من أبي ذر ، ورواه أحمد كما في المجموع (٨٤ / ٨) للهيتمي .

(٧) ضعيف : الترمذي (٢٥٠٥) في صفة القيامة ، وقال : «حديث غريب وليس إسناده بالم متصل» ، وضعفه الألباني هناك .

ما يكرهه الإنسان إذا نودي به فلا يجوز لأجل الأذية . والله أعلم .

قلت: وعلى هذا المعنى ترجم البخاري رحمه الله في « كتاب الأدب » من الجامع الصحيح . في « باب بيان ما يجوز من ذكر الناس نحو قولهم الطويل والقصير لا يراد به شين الرجل » قال: وقال النبي ﷺ: « ما يقول ذو اليمين » (١) قال أبو عبدالله بن خُويز مندداً: تضمنت الآية المنع من تليق الإنسان بما يكره، ويجوز تليقه بما يحب، ألا ترى أن النبي ﷺ لقب عمر بالفاروق، وأبا بكر بالصديق، وعثمان بزدي الثورين، وخزيمة بزدي الشهادتين، وأبا هريرة بزدي الشمالين وبزدي اليمين، في أشباه ذلك . الزمخشري: روي عن النبي ﷺ « من حق المؤمن على المؤمن أن يسميه بأحب أسمائه إليه » (٢) . ولهذا كانت التكنية من السنة والأدب الحسن، قال عمر رضي الله عنه: أشيعوا الكني فإنها منبهة . ولقد لقب أبو بكر بالعتيق والصديق، وعمر بالفاروق، وحزمة بأمد الله، وخالد بسيف الله . وقل من المشاهير في الجاهلية والإسلام من ليس له لقب . ولم تزل هذه الألقاب الحسنة في الأمم كلها - من العرب والعجم - تجري في مخاطباتهم ومكاتباتهم من غير تكبر . قال الماوردي: فأما مستحب الألقاب ومستحسنها فلا يكره . وقد وصف رسول الله ﷺ عدداً من أصحابه بأوصاف صارت لهم من أجل الألقاب .

قلت: فأما ما يكون ظاهرها الكراهة إذا أريد بها الصفة لا العيب فذلك كثير . وقد سئل عبدالله ابن المبارك عن الرجل يقول: حميد الطويل، وسليمان الأعمش، وحميد الأعرج، ومروان الأصغر، فقال: إذا أردت صفته ولم ترد عيبه فلا بأس به . وفي « صحيح مسلم » عن عبدالله بن سرجس قال: رأيت الأضلع - يعني عمر - يقبل الحجر (٣) .

وفي رواية الأصيلع .

قوله تعالى: ﴿ وَمَنْ لَمْ يَتُبْ ﴾ أي عن هذه الألقاب التي يتأذى بها السامعون . ﴿ فَأُولَئِكَ هُمُ الظَّالِمُونَ ﴾ لأنفسهم بارتكاب هذه المناهي .

﴿ يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا اجْتَنِبُوا كَثِيرًا مِّنَ الظَّنِّ إِنَّ بَعْضَ الظَّنِّ إِثْمٌ وَلَا تَجَسَّسُوا وَلَا يَغْتَب بَّعْضُكُم بَعْضًا أَيُحِبُّ أَحَدُكُمْ أَنْ يَأْكُلَ لَحْمَ أَخِيهِ مَيْتًا فَكَرِهْتُمُوهُ وَاتَّقُوا اللَّهَ إِنَّ اللَّهَ تَوَّابٌ رَّحِيمٌ ﴾

فيه عشر مسائل:

الأولى: قوله تعالى: ﴿ يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا اجْتَنِبُوا كَثِيرًا مِّنَ الظَّنِّ ﴾ قيل: إنها نزلت في رجلين من أصحاب النبي ﷺ اغتابا رفيقهما . وذلك أن النبي ﷺ كان إذا سافر ضم الرجل المحتاج إلى الرجلين المومنين فيخدمهما . فضم سلمان إلى رجلين، فتقدم سلمان إلى المنزل فقلبت عينا فلم يهين لهما شيئا، فجاء فلم يجدا طعاما وإداما، فقالا له: انطلق فاطلب لنا من النبي ﷺ طعاما وإداما،

(١) صحيح: علقه البخاري - باب (٤٥) في الأدب ، ووصله برقم (٤٨٢) في الصلاة ، عن أبي هريرة - رضي الله عنه .

(٢) كذا عند الزمخشري (١٤ / ٤) في الكشف ، وهي رواية بالمعنى .

(٣) صحيح: مسلم (٢٧٠ / ٢٥٠) في الحج .

فذهب فقال له النبي ﷺ: «أذهب إلى أسامة بن زيد فقل له إن كان عندك فضل من طعام فليعطك» وكان أسامة خازن النبي ﷺ، فذهب إليه، فقال أسامة: ما عندي شيء، فرجع إليهما فأخبرهما، فقالا: قد كان عنده ولكنه بخل. ثم بعثنا سلمان إلى طائفة من الصحابة فلم يجد عندهم شيئا، فقالا: لو بعثنا سلمان إلى بئر سُميحة لغار ماؤها. ثم انطلقا يتجسسان هل عند أسامة شيء، فرأهما النبي ﷺ فقال: «مالي أرى خضرة اللحم في أفواهكما» فقالا: يا نبي الله، والله ما أكلنا في يومنا هذا لحما ولا غيره. فقال: «ولكنكما ظلمتما تأكلان لحم سلمان وأسامه» فنزلت ﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا اجْتَنِبُوا كَثِيرًا مِّنَ الظَّنِّ إِنَّ بَعْضَ الظَّنِّ إِثْمٌ﴾ ذكره الثعلبي (١). أي لا تظنوا بأهل الخير سوءا إن كنتم تعلمون من ظاهر أمرهم الخير.

الثانية: ثبت في الصحيحين عن أبي هريرة أن النبي ﷺ قال: «إياكم والظن فإن الظن أكذب الحديث ولا تحسسوا ولا تجسسوا ولا تناجسوا ولا تباحثوا ولا تباعضوا ولا تدابروا وكونوا عباد الله إخوانا» لفظ البخاري (٢). قال علماؤنا: فالظن هنا وفي الآية هو التهمة. ومحل التحذير والنهي إنما هو تهمة لا سبب لها يوجبها، كمن يتهم بالفاحشة أو بشرب الخمر مثلا ولم يظهر عليه ما يقتضي ذلك. ودليل كون الظن هنا بمعنى التهمة قوله تعالى: ﴿وَلَا تَجَسَّسُوا﴾ وذلك أنه قد يقع له خاطر التهمة ابتداء ويريد أن يتجسس خبر ذلك ويبحث عنه، ويتبصر ويستمع لتحقيق ما وقع له من تلك التهمة. فهى النبي ﷺ عن ذلك. وإن شئت قلت: والذي يميز الظنون التي يجب اجتنابها عما سواها، أن كل ما لم تعرف له أمانة صحيحة وسبب ظاهر كان حراما واجب الاجتناب. وذلك إذا كان المظنون به ممن شوهد منه الستر والصلاح، وأونست منه الأمانة في الظاهر، فظن الفساد به والحياة محرم، بخلاف من أشتهره الناس بتعاطي الرب والمجاهرة بالخبائث. وعن النبي ﷺ أن الله حرم من المسلم دمه وعرضه وأن يظن به ظن السوء (٣). وعن الحسن: كنا في زمن الظن بالناس فيه حرام، وأنت اليوم في زمن اعلم واسكت وظن في الناس ما شئت.

الثالثة: وللظن حالتان: حالة تعرف وتقوى بوجه من وجوه الأدلة فيجوز الحكم بها، وأكثر أحكام الشريعة مبنية على غلبة الظن، كالقياس وخبر الواحد وغير ذلك من قيم المتلفات وأروش الجنائيات. والحالة الثانية: أن يقع في النفس شيء من غير دلالة فلا يكون ذلك أولى من ضده، فهذا هو الشك، فلا يجوز الحكم به، وهو المنهي عنه على ما قررناه آنفا. وقد أنكرت جماعة من المتدعة تعبد الله بالظن وجواز العمل به، تحكما في الدين ودعوى في المعقول. وليس في ذلك أصل يعول عليه، فإن الباري تعالى لم يذم جميعه، وإنما أورد الذم في بعضه. وربما تعلقوا بحديث أبي هريرة «إياكم والظن» (٤) فإن هذا لا حجة فيه، لأن الظن في الشريعة قسمان: محمود ومذموم، فالمحمود منه ما سلم معه دين الظان والمظنون به عند بلوغه. والمذموم ضده، بدلالة قوله تعالى: ﴿إِنَّ بَعْضَ الظَّنِّ

(١) ضعيف: البغوي (٧/ ٣٤٥) في تفسيره بهذا التمام، وعزاه السيوطي (٦/ ١٠٢) في الدر لابن أبي حاتم، عن السدي دون ذكر أسامة - رضي الله عنه.

(٢) صحيح: وقد سبق قريبا.

(٣) متفق عليه: وقد سبق قريبا نحوه.

(٤) صحيح: وقد سبق.

﴿إِمْ﴾ ، وقوله: ﴿وَلَا إِذْ سَمِعْتُمُوهُ ظَنَّ الْمُؤْمِنُونَ وَالْمُؤْمِنَاتُ بِأَنْفُسِهِمْ خَيْرًا﴾ [النور: ١٢] ، وقوله: ﴿وَوَدَّعْتُمْ ظَنَّ السُّوءِ وَكُنْتُمْ قَوْمًا بُورًا﴾ [الفتح: ١٢] وقال النبي ﷺ: «إذا كان أحدكم مادحا أخاه فليقل أحسب كذا ولا أركي على الله أحدا»<sup>(١)</sup> . وقال: «إذا ظننت فلا تحقق وإذا حسدت فلا تبغ وإذا تطيرت فامض» خرج أبو داود<sup>(٢)</sup> ، وأكثر العلماء على أن الظن القبيح بمن ظاهره الخير لا يجوز، وأنه لا حرج في الظن القبيح بمن ظاهره القبيح، قاله المهدي.

الرابعة: قوله تعالى: ﴿وَلَا تَحْسَبُوا﴾ قرأ أبو رجاء والحسن باختلاف وغيرهما «ولا تحسبوا» بالخاء. واختلف هل هما بمعنى واحد أو بمعنىين؟ فقال الأخفش: ليس تبعث إحداهما من الأخرى، لأن التجسس البحث عما يكتم عنك. والتحسس بالخاء طلب الأخبار والبحث عنها. وقيل: إن التجسس بالجيم هو البحث، ومنه قيل: رجل جاسوس إذا كان يبحث عن الأمور. وبالخاء: هو ما أدركه الإنسان ببعض حواسه. وقول ثان في الفرق: أنه بالخاء تطلبه لنفسه، وبالجيم أن يكون رسولا غيره، قاله ثعلب. والأول أعراف. جسست الأخبار وتجسستها أي تفحصت عنها، ومنه الجاسوس. ومعنى الآية: خذوا ما ظهر ولا تتبعوا عورات المسلمين، أي لا يبحث أحدكم عن عيب أخيه حتى يطلع عليه بعد أن ستره الله. وفي كتاب أبي داود عن معاوية قال سمعت رسول الله ﷺ يقول: «إنك إن اتبعت عورات الناس أفسدتهم أو كدت أن تفسدهم» فقال أبو الدرداء: كلمة سمعها معاوية من رسول الله ﷺ نفعه الله تعالى بها<sup>(٣)</sup> . وعن المقدم بن معدي كرب عن أبي أمامة عن النبي ﷺ قال: «إن الأمير إذا ابتغى الريبة في الناس أفسدهم»<sup>(٤)</sup> . وعن زيد بن وهب قال: أتني ابن مسعود فقيل: هذا فلان تقطر لحيته خمرا . فقال عبدالله: إنا قد نهينا عن التجسس ، ولكن إن يظهر لنا شيء نأخذ به<sup>(٥)</sup> . وعن أبي برزة الأسلمي قال: قال رسول الله ﷺ: «يا معشر من آمن بلسانه ولم يدخل الإيمان قلبه لا تغتابوا المسلمين ولا تتبعوا عوراتهم، فإن من اتبع عوراتهم يتبع الله عورته ومن يتبع الله عورته يفضح في بيته»<sup>(٦)</sup> . وقال عبد الرحمن بن عوف: حرست ليلة مع عمر بن الخطاب رضي الله عنه بالمدينة إذ تبين لنا سراج في بيت بابه مجاف على قوم لهم أصوات مرتفعة ولغظ، فقال عمر: هذا بيت ربيعة بن أمية بن خلف، وهم الآن شرب فما ترى؟ قلت: أرى أنا قد أتينا ما نهى الله عنه، قال الله تعالى: ﴿وَلَا تَجَسَّوْا﴾ وقد تجسسنا، فانصرف عمر وتركهم<sup>(٧)</sup> . وقال أبو قلابة: حدث عمر بن الخطاب أن أبا محجن الثقفي يشرب الخمر مع أصحاب له في بيته، فانطلق عمر حتى

- (١) متفق عليه: البخاري (٢٦٦١) في الشهادات ، ومسلم (٣٠٠٠) في الزهد ، والرقائق ، عن أبي بكره الثقفي .  
 (٢) ضعيف : ضعفه الألباني (٢٥٢٦) في ضعيف الجامع من طريق أبي الشيخ ، والطبراني ، عن حارثة بن النعمان (٢٥٢٧) عن الحسن مرسلأ .  
 (٣) صحيح : أبو داود (٤٨٨٨) في الأدب وصححه الألباني ، ورواه ابن حبان (٥٧٦٠) في صحيحه .  
 (٤) صحيح لغيره : أبو داود (٤٨٨٩) في الأدب ، وصححه الألباني هناك ، ورواه أحمد (٤ / ٦) في المسند .  
 (٥) صحيح : أبو داود (٤٨٩٠) في الأدب وصحة الألباني هناك .  
 (٦) حسن صحيح : أبو داود (٤٨٨٠) في الأدب ، وصححه الألباني (٥٠٤٤) في المشكاة .  
 (٧) حسن : السيوطي (٦ / ١٠٠) في الدر وعزاه لعبد الرزاق وعبد بن حميد ، من طريق زرارة بن مصعب ، عن المسور بن مخرمة ، عن عبد الرحمن بن عوف .

دخل عليه، فإذا ليس عنده إلا رجل، فقال أبو محجن: إن هذا لا يحل لك قد نهاك الله عن التجسس، فخرج عمر وتركه (١). وقال زيد بن أسلم: خرج عمر وعبدالرحمن يعسان، إذ تبينت لهما نار فاستأذنا ففتح الباب، فإذا رجل وامرأة تغني وعلى يد الرجل قدح، فقال عمر: وأنت بهذا يا فلان؟ فقال: وأنت بهذا يا أمير المؤمنين! قال عمر: فمن هذه منك؟ قال امرأتي، قال فما في هذا القدح؟ قال ماء زلال، فقال للمرأة: وما الذي تغنين؟ فقالت:

تطاول هذا الليل واسودَّ جانبُه  
وأرقتني أن لا خليلَ الأعبه  
فوالله لولا الله أني أراقبه  
لزُعزع من هذا السرير جوانبه  
ولكنّ عقلي والحياء يكفني  
وأكرم بعلي أن تُنال مراكبه

ثم قال الرجل: ما بهذا أمرنا يا أمير المؤمنين قال الله تعالى ﴿وَلَا تَجَسَّسُوا﴾. قال صدقت (٢). قلت: لا يفهم من هذا الخبر أن المرأة كانت غير زوجة الرجل، لأن عمر لا يقر على الزنى، وإنما هنت بتلك الآيات تذكارا لزوجها، وأنها قالتها في مغيبه عنها. والله أعلم. وقال عمرو بن دينار: كان رجل من أهل المدينة له أخت فاشتكت، فكان يعودها فماتت فدفنها. فكان هو الذي نزل في قبرها، فسقط من كفه كيس فيه دنانير، فاستعان ببعض أهله فنبشوا قبرها فأخذ الكيس ثم قال: لاكتشفن حتى أنظر ما آل حال أختي إليه، فكشف عنها فإذا القبر مشتعل نارا، فجاء إلى أمه فقال: أخبريني ما كان عمل أختي؟ فقالت: قد ماتت أختك فما سؤالك عن عملها فلم يزل بها حتى قالت له: كان من عملها أنها كانت تؤخر الصلاة عن مواقيتها، وكانت إذا نام الجيران قامت إلى بيوتهم فألقت أذنبا أبوابهم، فتجسس عليهم وتخرج أسرارهم، فقال: بهذا هلكت

الخامسة: قوله تعالى: ﴿وَلَا يَغْتَب بَّعْضُكُم بَعْضًا﴾ نهي عز وجل عن الغيبة، وهي أن تذكر الرجل بما فيه، فإن ذكرته بما ليس فيه فهو البهتان. ثبت معناه في «صحيح مسلم» عن أبي هريرة أن رسول الله ﷺ قال: «أتدرون ما الغيبة؟» قالوا: الله ورسوله أعلم. قال: «ذكرك أخاك بما يكره» قيل: أفرأيت إن كان في أخي ما أقول؟ قال: «إن كان فيه ما تقول فقد اغتبته وإن لم يكن فيه فقد بهته» (٣). يقال: اغتابه اغتيابا إذا وقع فيه، والاسم الغيبة، وهي ذكر العيب بظهر الغيب. قال الحسن: الغيبة ثلاثة أوجه كلها في كتاب الله تعالى: الغيبة والإفك والبهتان. فأما الغيبة فهو أن تقول في أخيك ما هو فيه. وأما الإفك فإن تقول فيه ما بلغك عنه. وأما البهتان فإن تقول فيه ما ليس فيه. وعن شعبة قال: قال لي معاوية - يعني ابن قرة: لو مر بك رجل أقطع، فقلت هذا أقطع كان غيبة. قال شعبة: فذكرته لأبي إسحاق فقال صدق. وروى أبو هريرة أن الأسلمي ماعزاً جاء إلى النبي ﷺ فشهد على نفسه بالزنا فرجحه رسول الله ﷺ. فسمع نبي الله ﷺ رجلين من أصحابه يقول أحدهما للآخر: انظر إلى هذا الذي ستر الله عليه فلم تدعه نفسه حتى رجم رجم الكلب، فسكت عنهما. ثم سار ساعة حتى مر بجيفة حمار سائل برجله فقال: «أين فلان وفلان؟» فقالا: نحن ذا يا رسول الله،

(١) انظر: مناقب عمر لابن الجوزي (ص ١١٢).

(٢) هذا مزيج روايتين، وقد عزاه السيوطي بنحوه في الدر (٦/ ١٠٠) للخراطي في مكارم الأخلاق.

(٣) صحيح: مسلم (٢٥٨٩) في البر والصلة والآداب.

قال: «انزلا فكلنا من جيفة هذا الحمار» فقالوا: يا نبي الله ومن يأكل من هذا! قال: «فما نلتما من عرض أخيكما أشد من الأكل منه، والذي نفسي بيده إنه الآن لفي أنهار الجنة ينغمس فيها» (١).  
 السادسة: قوله تعالى: ﴿أَيُّحِبُّ أَحَدُكُمْ أَنْ يَأْكُلَ لَحْمَ أَخِيهِ مَيْتًا﴾ مثل الله الغيبة بأكل الميتة، لأن الميت لا يعلم بأكل لحمه كما أن الحي لا يعلم بغيبة من اغتابه. وقال ابن عباس: إنما ضرب الله هذا المثل للغيبة لأن أكل لحم الميت حرام مستقذر، وكذا الغيبة حرام في الدين وقبيح في النفوس. وقال قتادة: كما يمتنع أحدكم أن يأكل لحم أخيه ميتا كذلك يجب أن يمتنع من غيبته حيا (٢). واستعمل أكل اللحم مكان الغيبة لأن عادة العرب بذلك جارية. قال الشاعر:

فإن أكلوا لحمي وقرت لحومهم وإن هدموا مجدي بنيت لهم مجدا

وقال ﷺ: «ما صام من ظل يأكل لحوم الناس» (٣). فشبه الواقعة في الناس بأكل لحومهم. فمن تنقص مسلما أو ثلم عرضه فهو كالأكل لحمه حيا، ومن اغتابه فهو كالأكل لحمه ميتا. وفي كتاب أبي داود عن أنس بن مالك قال: قال رسول الله ﷺ: «لما عرج بي مرتت يقوم لهم أظفار من نحاس يخمشون وجوههم وصدورهم فقلت من هؤلاء يا جبريل؟ قال هؤلاء الذين يأكلون لحوم الناس ويقعون في أعراضهم» (٤). وعن المستورد أن رسول الله ﷺ قال: «من أكل برجل مسلم أكلة فإن الله يطعمه مثلها من جهنم ومن كسى ثوبا برجل مسلم فإن الله يكسوه مثله من جهنم ومن أقام برجل مقام سمعة ورياء فإن الله يقوم به مقام سمعة ورياء يوم القيامة» (٥). وقد تقدم قوله ﷺ: «يا معشر من آمن بلسانه ولم يدخل الإيمان قلبه لا تغتابوا المسلمين» (٦). وقوله للرجلين: «ما لي أرى خضرة اللحم في أفواهكما» (٧). وقال أبو قلابة الرقاشي: سمعت أبا عاصم يقول: ما اغتبت أحدا مذ عرفت ما في الغيبة. وكان ميمون بن سياه لا يغتاب أحدا، ولا يدع أحدا يغتاب أحدا عنده، ينهاه فإن انتهى وإلا قام. وذكر الثعلبي من حديث أبي هريرة قال: قام رجل من عند النبي ﷺ فرأوا في قيامه عجزا فقالوا: يا رسول الله ما أعجز فلانا؟ فقال: «أكلتم لحم أخيكم واغتبتموه» (٨). وعن سفيان الثوري قال: أدني الغيبة أن تقول إن فلانا جعد قطط، إلا أنه يكره ذلك. وقال عمر بن الخطاب رضي الله عنه: إياكم وذكر الناس فإنه داء، وعليكم بذكر الله فإنه شفاء. وسمع علي بن الحسين رضي الله عنهما رجلا يغتاب آخر، فقال: إياك والغيبة فإنها إدام كلاب الناس. وقيل لعمر بن ابن عبيد: لقد وقع فيك فلان حتى رحمنك، قال: إياه فارحموا. وقال رجل للحسن: بلغني أنك

(١) ضعيف : أبو داود (٤٤٢٨) في الحلود وضعفه الألباني هناك

(٢) صحيح إلى قتادة : الطبري (٢٦ / ١٤١) في تفسيره .

(٣) ضعيف : ضعيف الجامع (٥٠٨٣) ، وعزاه الألباني للدليمي في مسند الفردوس ، عن أنس - رضي الله عنه .

(٤) صحيح : أبو داود (٤٨٧٨) في الأدب وصححه الألباني (٥٢١٣) في صحيح الجامع .

(٥) صحيح : أبو داود (٤٨٨١) في الأدب وصححه الألباني هناك .

(٦) صحيح : وقد سبق .

(٧) ضعيف : وقد سبق .

(٨) ضعيف : الطبري (٢٦ / ١٤١) في تفسيره وفيه حماد بن أبي حميد منكر الحديث كما في التاريخ الكبير (١/

تغتابني فقال: لم يبلغ قدرك عندي أن أحكمك في حسناتي.

**السابعة:** ذهب قوم إلى أن الغيبة لا تكون إلا في الدين ولا تكون في الحلقة والحسب. وقالوا: ذلك فعل الله به. وذهب آخرون إلى عكس هذا فقالوا: لا تكون الغيبة إلا في الخلق والخلق والحسب. والغيبة في الخلق أشد، لأن من عيب صنعة فإنما عيب صانعها. وهذا كله مردود. أما الأول فيرده حديث عائشة حين قالت في صفة: إنها امرأة قصيرة، فقال لها النبي ﷺ: «لقد قلت كلمة لو مزج بها البحر لمزجته». خرجه أبو داود. وقال فيه الترمذي: حديث حسن صحيح<sup>(١)</sup>، وما كان في معناه حسب ما تقدم. وإجماع العلماء قديما على أن ذلك غيبة إذا أريد به العيب. وأما الثاني فمردود أيضا عند جميع العلماء، لأن العلماء من أول الدهر من أصحاب رسول الله ﷺ والتابعين بعدهم لم تكن الغيبة عندهم في شيء أعظم من الغيبة في الدين، لأن عيب الدين أعظم العيب، فكل مؤمن يكره أن يذكر في دينه أشد مما يكره في بدنه. وكفى ردا لمن قال هذا القول قوله عليه السلام: «إذا قلت في أخيك ما يكره فقد أغتبتته...» الحديث<sup>(٢)</sup>. فمن زعم أن ذلك ليس بغيبة فقد رد ما قال النبي ﷺ نصا. وكفى بعموم قول النبي ﷺ: «إن دماءكم وأموالكم وأعراضكم عليكم حرام»<sup>(٣)</sup> وذلك عام للدين والدنيا. وقول النبي: «من كانت عنده لأخيه مظلمة في عرضه أو ماله فليتحلله منه»<sup>(٤)</sup>. فعم كل عرض، فمن خص من ذلك شيئا دون شيء فقد عارض ما قال النبي ﷺ.

**الثامنة:** لا خلاف أن الغيبة من الكبائر، وأن من اغتاب أحدا عليه أن يتوب إلى الله عز وجل. وهل يستحل المغتاب؟ اختلف فيه، فقالت فرقة: ليس عليه استحلاله، وإنما هي خطيئة بينه وبين ربه. واحتجت بأنه لم يأخذ من ماله ولا أصاب من بدنه ما ينقصه، فليس ذلك بمظلمة يستحلها منه، وإنما المظلمة ما يكون منه البدل والعوض في المال والبدن. وقالت فرقة: هي مظلمة، وكفارتها الاستغفار لصاحبها الذي اغتابه. واحتجت بحديث يروي عن الحسن قال: كفارة الغيبة أن تستغفر لمن اغتبتته. وقالت فرقة: هي مظلمة وعليه الاستحلال منها. واحتجت بقول النبي ﷺ: «من كانت لأخيه عنده مظلمة في عرض أو مال فليتحلله منه من قبل أن يأتي يوم ليس هناك دينار ولا درهم يؤخذ من حسناته فإن لم يكن له حسنات أخذ من سيئات صاحبه فزيد على سيئاته»<sup>(٥)</sup>. وأخرجه البخاري من حديث أبي هريرة رضي الله عنه قال: قال رسول الله ﷺ: «من كانت له مظلمة لأخيه من عرضه أو شيء فليتحلله منه اليوم قبل ألا يكون له دينار ولا درهم إن كان له عمل صالح أخذ منه بقدر مظلمته وإن لم يكن له حسنات أخذ من سيئات صاحبه فحمل عليه»<sup>(٦)</sup>. وقد تقدم هذا المعنى في سورة «آل عمران» عند قوله تعالى: ﴿وَلَا تَحْسَبَنَّ الَّذِينَ قُتِلُوا فِي سَبِيلِ اللَّهِ أَمْوَاتًا بَلْ أحيَاءٌ﴾ [آل عمران: ١٦٩]. وقد روي من حديث عائشة أن امرأة دخلت عليها فلما قامت قالت امرأة: ما أطول ذيلها فقالت لها عائشة: لقد اغتبتيتها فاستحلها<sup>(٧)</sup>. فدللت الآثار عن النبي ﷺ أنها مظلمة يجب على المغتاب

(١-٦) صحاح: وقد سقت جميعا.

(٧) ضعيف: وقد سبق.

استحلالها. وأما قول من قال: إنما الغيبة في المال والبدن، فقد أجمعت العلماء على أن على القاذف للمقذوف مظلمة يأخذه بالحد حتى يقيمه عليه، وذلك ليس في البدن ولا في المال، ففي ذلك دليل على أن الظلم في العرض والبدن والمال، وقد قال الله تعالى في القاذف: ﴿فَإِذَا لَمْ يَأْتُوا بِالشَّهَادَةِ فَأَوْتِكُ عِنْدَ اللَّهِ هُمْ الْكَاذِبُونَ﴾ [النور: ١٣]. وقد قال رسول الله ﷺ: «من بهت مؤمنا بما ليس فيه حسبه الله في طينة الخبال»<sup>(١)</sup>. وذلك كله في غير المال والبدن. وأما من قال: إنها مظلمة، وكفارة المظلمة أن يستغفر لصاحبها، فقد ناقض إذ سماها مظلمة ثم قال: كفارتها أن يستغفر لصاحبها، لأن قوله: مظلمة تثبت ظلامة المظلوم، فإذا ثبتت الظلامة لم يزلها عن الظالم إلا إحلال المظلوم له. وأما قول الحسن فليس بحجة، وقد قال النبي ﷺ: «من كانت له عند أخيه مظلمة في عرض أو مال فليتحللها منه»<sup>(٢)</sup>. وقد ذهب بعضهم إلى ترك التحليل لمن سأل، ورأى أنه لا يحل ما حرم الله عليه، منهم سعيد بن المسيب قال: لا أحلل من ظلمني. وقيل لابن سيرين: يا أبا بكر، هذا رجل سألك أن تحمله من مظلمة هي لك عنده، فقال: إنني لم أحرمها عليه فأحلها، إن الله حرم الغيبة عليه، وما كنت لأحل ما حرم الله عليه أبدا. وخبر النبي ﷺ يدل على التحليل، وهو الحجة والمبين. والتحليل يدل على الرحمة وهو من وجه العفو، وقد قال تعالى: ﴿فَمَنْ عَفَا وَأَصْلَحَ فَأَجْرُهُ عَلَى اللَّهِ﴾ [الشورى: ٤٠].

التاسعة: ليس من هذا الباب غيبة الفاسق المعلن به المجاهر، فإن في الخبر «من ألقى جلاب الحياء فلا غيبة له»<sup>(٣)</sup>. وقال ﷺ: «اذكروا الفاجر بما فيه كي يحذره الناس»<sup>(٤)</sup>. فالغيبة إذا في المرء الذي يستر نفسه. وروي عن الحسن أنه قال: ثلاثة ليس لهم حرمة: صاحب الهوى، والفاسق المعلن، والإمام الجائر. وقال الحسن لما مات الحجاج: اللهم أنت أمته فاقطع عنا سنته - وفي رواية: شينه - فإنه أتانأ أخيفش أعيمش، يمد ييد قصيرة البنان، والله ما عرق فيها غبار في سبيل الله، يرجل جمته ويخطر في مشيته، ويصعد المنبر فيهدر حتى تفوته الصلاة، لا من الله يتقي، ولا من الناس يستحي، فوqe الله وتحته مائة ألف أو يزيدون، لا يقول له قائل: الصلاة أيها الرجل. ثم يقول الحسن: هيهات! حال دون ذلك السيف والسوط. وروي الربيع بن صبيح عن الحسن قال: ليس لأهل البدع غيبة. وكذلك قولك للقاضي تستعين به على أخذ حقتك ممن ظلمك فتقول فلان ظلمني أو غصبني أو خانتني أو ضربني أو قذفني أو أساء إلي، ليس بغيبة. وعلماء الأمة على ذلك مجمعة. وقال النبي ﷺ في ذلك: «لصاحب الحق مقال»<sup>(٥)</sup>. وقال: «مطل الغني ظلم»<sup>(٦)</sup>.

(١) حسن: الهيثمي (١٠ / ٩١) في المجمع، عن عبد الله بن عمرو، وعزاه للطبراني في الأوسط والكبير، ورجالهما رجال الصحيح غير محمد بن منصور الطوسي وهو ثقة.

(٢) صحيح: وقد سبق.

(٣) ضعيف جداً: ضعيف الجامع (٥٤٨٣) للألباني وعزاه للبيهقي.

(٤) ضعيف: ضعيف الجامع (١٠٤) للألباني.

(٥) متفق عليه: البخاري (٢٣٩٠) في الاستقراض، ومسلم (١٦٠١) في المساقاة، عن أبي هريرة - رضي الله عنه.

(٦) صحيح: وقد سبق.

وقال: «لي الواجد يحل عرضه وعقوبته»<sup>(١)</sup>. ومن ذلك الاستفتاء، كقول هند للنبي ﷺ: إن أبا سفيان رجل شحيح لا يعطيني ما يكفيني أنا وولدي، فأخذ من غير علمه؟ فقال النبي ﷺ: «نعم فخذني»<sup>(٢)</sup>. فذكرته بالشح والظلم لها ولولدها، ولم يرها مغتابة، لأنه لم يغير عليها، بل أجابها عليه الصلاة والسلام بالفتيا لها. وكذلك إذا كان في ذكره بالسوء فائدة، كقوله ﷺ: «أما معاوية فصعلوك لا مال له وأما أبو جهم فلا يضع عصاه عن عاتقه»<sup>(٣)</sup>. فهذا جائز، وكان مقصوده ألا تغتر فاطمة بنت قيس بهما. قال جميعه المحاسبي رحمه الله.

**العاشرة:** قوله تعالى: ﴿مَيْتًا﴾ وقرىء «مَيْتًا» وهو نصب على الحال من اللحم. ويجوز أن ينصب على الآخ، ولما قرره عز وجل بأن أحدا منهم لا يحب أكل جيفة أخيه عقب ذلك بقوله تعالى: ﴿فَكَرِهْتُمُوهُ﴾ وفيه وجهان: أحدهما: فكرهتم أكل الميتة فكذلك فآكروها الغيبة، روي معناه عن مجاهد<sup>(٤)</sup>. الثاني: فكرهتم أن يغتابكم الناس فآكروها غيبة الناس. وقال الفراء: أي فقد كرهتموه فلا تفعلوه. وقيل: لفظه خبر ومعناه أمر، أي آكروهوه. ﴿وَاتَّقُوا اللَّهَ﴾ عطف عليه. وقيل: عطف على قوله: ﴿اجْتَنِبُوا﴾ و﴿وَلَا تَجَسَّسُوا﴾. ﴿إِنَّ اللَّهَ تَوَّابٌ رَحِيمٌ﴾.

﴿يَا أَيُّهَا النَّاسُ إِنَّا خَلَقْنَاكُمْ مِنْ ذَكَرٍ وَأُنْثَىٰ وَجَعَلْنَاكُمْ شُعُوبًا وَقَبَائِلَ لِتَعَارَفُوا إِنَّ أَكْرَمَكُمْ عِنْدَ اللَّهِ أَتَقَىٰكُمْ إِنَّ اللَّهَ عَلِيمٌ خَبِيرٌ ﴿١٣﴾﴾

فيه سبع مسائل:

**الأولى:** قوله تعالى: ﴿يَا أَيُّهَا النَّاسُ إِنَّا خَلَقْنَاكُمْ مِنْ ذَكَرٍ وَأُنْثَىٰ﴾ يعني آدم وحواء. ونزلت الآية في أبي هند، ذكره أبو داود في المراسيل حدثنا عمرو بن عثمان وكثير بن عبيد قالوا حدثنا بنية بن الوليد قال حدثني الزهري قال: أمر رسول الله ﷺ بني بياضة أن يزوجوا أبا هند امرأة منهم، فقالوا لرسول الله ﷺ: نزوج بناتنا مواليها؟ فأنزل الله عز وجل: ﴿يَا أَيُّهَا النَّاسُ إِنَّا خَلَقْنَاكُمْ مِنْ ذَكَرٍ وَأُنْثَىٰ وَجَعَلْنَاكُمْ شُعُوبًا﴾<sup>(٥)</sup> الآية. قال الزهري: نزلت في أبي هند خاصة<sup>(٦)</sup>. وقيل: إنها نزلت في ثابت بن قيس ابن شماس. وقوله في الرجل الذي لم يتفسح له: ابن فلانة، فقال النبي ﷺ: «من الذائر فلانة؟» قال ثابت: أنا يا رسول الله، فقال النبي ﷺ: «انظر في وجوه القوم» فنظر، فقال: «ما رأيت؟» قال رأيت أبيض وأسود وأحمر، فقال: «فإنك لا تفضلهم إلا بالقوى»<sup>(٧)</sup> فنزلت في ثابت هذه الآية. ونزلت في الرجل الذي لم يتفسح له ﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا إِذَا قِيلَ لَكُمْ تَفَسَّحُوا فِي الْمَجَالِسِ﴾ [المجادلة: ١١] الآية. قال ابن عباس: لما كان يوم فتح مكة أمر النبي ﷺ بلالا حتى علا على ظهر الكعبة فأذن، فقال عتاب بن أسيد بن أبي العيص: الحمد لله الذي قبض أبي حتى لا يرى هذا اليوم. قال الحارث

(١ - ٣) صحيح إليه : وقد سبقت جميعاً .

(٤) ضعيف للإرسال : والتدليس ، وانظر: المراسيل لأبي داود (١/ ١٩٥) برقم (٢٣٠) ، وسنن البيهقي الكبرى (٧/ ١٣٦) .

(٥) انظر السابق .

(٦) ضعيف : الواحدى (ص٣٣٥) في أسباب النزول بلا إسناد .

(٧) ضعيف : السابق (ص٣٣٥) ، عن مقال بلا إسناد .

ابن هشام: ما وجد محمد غير هذا الغراب الأسود مؤذنا. وقال سهيل بن عمرو: إن يرد الله شيئا يغيره. وقال أبو سفيان: إني لا أقول شيئا أخاف أن يخبر به رب السماء، فأتى جبريل النبي ﷺ وأخبره بما قالوا، فدعاهم وسألهم عما قالوا فأقروا، فأنزل الله تعالى هذه الآية (١). زجرهم عن التفاخر بالأنساب، والتكاثر بالأموال، والازدراء بالفقراء، فإن المدار على التقوى. أي الجميع من آدم وحواء، إنما الفضل بالتقوى. وفي الترمذي عن ابن عمر أن رسول الله ﷺ خطب بمكة فقال: «يا أيها الناس إن الله قد أذهب عنكم عبية الجاهلية وتعاطفها بآبائها. فالناس رجلان: رجل بر تقي كريم على الله، وفاجر شقي هين على الله. والناس بنو آدم وخلق الله آدم من تراب قال الله تعالى: ﴿يَا أَيُّهَا النَّاسُ إِنَّا خَلَقْنَاكُمْ مِنْ ذَكَرٍ وَأُنْثَىٰ وَجَعَلْنَاكُمْ شُعُوبًا وَقَبَائِلَ لِتَعَارَفُوا إِنَّ أَكْرَمَكُمْ عِنْدَ اللَّهِ أَتْقَاكُمْ إِنَّ اللَّهَ عَلِيمٌ خَبِيرٌ﴾. خرج من حديث عبدالله بن جعفر والد علي بن المديني وهو ضعيف، وضعفه يحيى بن معين وغيره (٢). وقد خرج الطبري في كتاب «آداب النفوس» حديثي يعقوب بن إبراهيم قال حدثنا إسماعيل قال حدثنا سعيد الجريري عن أبي نضرة قال: حدثني أو حدثنا من شهد خطب رسول الله ﷺ بمنى في وسط أيام التشريق وهو على بعير فقال: «أيها الناس ألا إن ربكم واحد وإن أباكم واحد ألا لا فضل لعربي على عجمي ولا عجمي على عربي ولا لأسود على أحمر ولا لأحمر على أسود إلا بالتقوى ألا هل بلغت؟» قالوا نعم قال: «ليبلى الشاهد الغائب» (٣). وفيه عن أبي مالك الأشعري قال: قال رسول الله ﷺ: «إن الله لا ينظر إلى أحسابكم ولا إلى أَسَابِكُمْ ولا إلى أجسامكم ولا إلى أموالكم ولكن ينظر إلى قلوبكم فمن كان له قلب صالح تحنن الله عليه وإنما أنتم بنو آدم وأحبكم إليه أتقاكم». ولعلي رضي الله عنه في هذا المعنى وهو مشهور من شعره:

النَّاسُ مِنْ جِهَةِ التَّمثِيلِ أَكْفَاءُ	أَبُوهُمْ أَدَمُ وَالْأُمَّ حَوَاءُ
نَفْسٌ كَنَفْسٍ وَأَرْوَاحٌ مَشَاكِلَةٌ	وَأَعْظَمُ خُلُقَتْ فِيهِمْ وَأَعْضَاءُ
فَإِنْ يَكُنْ لَهُمْ مِنْ أَصْلِهِمْ حَسَبٌ	يَفَاخِرُونَ بِهِ فَالطَّيْنُ وَالْمَاءُ
مَا الْفَضْلُ إِلَّا لِأَهْلِ الْعِلْمِ إِنَّهُمْ	عَلَى الْهُدَىٰ لِمَنْ اسْتَهْدَىٰ آدَاءُ
وَقَدَرُ كُلِّ امْرَأٍ مَا كَانَ يُحْسِنُهُ	وَلِلرِّجَالِ عَلَى الْأَفْعَالِ سِيْمَاءُ
وَضُدُّ كُلِّ امْرَأٍ مَا كَانَ يَجْهَلُهُ	وَالْجَاهِلُونَ لِأَهْلِ الْعِلْمِ أَعْدَاءُ

الثانية: بين الله تعالى في هذه الآية أنه خلق الخلق من الذكر والأنثى، وكذلك في أول سورة «النساء» (٤). ولو شاء لخلقه دونهما كخلقه لآدم، أو دون ذكر كخلقه لعيسى عليه السلام، أو دون أنثى كخلقه حواء من إحدى الجهتين. وهذا الجائز في القدرة لم يرد به الوجود. وقد جاء أن آدم خلق الله منه حواء من ضلع انتزعها من أضلاعه، فلعله هذا القسم، قاله ابن العربي.

الثالثة: خلق الله الخلق بين الذكر والأنثى أنسابا وأصهارا وقبائل وشعوبا، وخلق لهم منها

(١) صحيح: أبو داود (٥١١٦) في الأدب، والترمذي (٣٢٧٠) في تفسير القرآن، وصححه الألباني هناك.

(٢) ضعيف: البيهقي (٢٨٩ / ٤) في الشعب، وقال: «في هذا الإسناد من يجهل»، وكذا قال المنذري (٣ / ٣٧٥) في الترغيب.

(٣) ضعيف: الهيثمي (١٠ / ٢٣١) في المجمع وعزاه للطبراني وفيه: يحيى بن عبد الحميد الحماني وهو: ضعيف.

(٤) عند الآية (١).

التعارف، وجعل لهم بها التواصل للحكمة التي قدرها وهو أعلم بها، فصار كل أحد يحوز نسبه، فإذا نفاه رجل عنه استوجب الحد بقذفه، مثل أن ينفسه عن رهطه وحسبه، بقوله للعربي: يا عجمي، وللعجمي: يا عربي، ونحو ذلك مما يقع به النفي حقيقة. انتهى.

الرابعة: ذهب قوم من الأوائل إلى أن الجنين إنما يكون من ماء الرجل وحده، ويتربى في رحم الأم، ويستمد من الدم الذي يكون فيه. واحتجوا بقوله تعالى: ﴿أَلَمْ نَخْلُقْكُمْ مِنْ مَّاءٍ مَّهِينٍ﴾ (٢٠) فجعلناه في قرارٍ مكين ﴿المرسلات: ٢١﴾. وقوله تعالى: ﴿ثُمَّ جَعَلْنَا نَسْلَهُ مِنْ سُلَالَةٍ مِنْ مَّاءٍ مَّهِينٍ﴾ (السجدة: ٨). وقوله: ﴿أَلَمْ يَكْ نُفُفَةً مِنْ مَّنِيَّ يُمْنِي﴾ [القيامة: ٣٧]. فدل على أن الخلق من ماء واحد. والصحيح أن الخلق إنما يكون من ماء الرجل والمرأة لهذه الآية، فإنها نص لا يحتمل التأويل. وقوله تعالى: ﴿خَلَقَ مِنْ مَّاءٍ دَافِقٍ﴾ (٦٦) يَخْرُجُ مِنْ بَيْنِ الصُّلْبِ وَالتَّرَائِبِ ﴿[الطارق: ٧] والمراد منه أصلاب الرجال وترائب النساء، على ما يأتي بيانه. وأما ما احتجوا به فليس فيه أكثر من أن الله تعالى ذكر خلق الإنسان من الماء والسلالة والنطفة ولم يصفها إلى أحد الأبوين دون الآخر. فدل على أن الماء والسلالة لهما والنطفة منهما بدلالة ما ذكرنا. وبأن المرأة تمنى كما يمني الرجل، وعن ذلك يكون الشبه، حسب ما تقدم بيانه في آخر «الشورى» (١). وقد قال في قصة نوح ﴿فَاتَّقَى الْمَاءَ عَلَىٰ أَمْرٍ قَدْ قُدِرَ﴾ [القمر: ١٢] وإنما أراد ماء السماء وماء الأرض، لأن الالتقاء لا يكون إلا من اثنين، فلا ينكر أن يكون ﴿ثُمَّ جَعَلْنَا نَسْلَهُ مِنْ سُلَالَةٍ مِنْ مَّاءٍ مَّهِينٍ﴾ [السجدة: ٨]. وقوله تعالى: ﴿أَلَمْ نَخْلُقْكُمْ مِنْ مَّاءٍ مَّهِينٍ﴾ [المرسلات: ٢١] ويريد ماءين. والله أعلم.

الخامسة: قوله تعالى: ﴿وَجَعَلْنَاكُمْ شُعُوبًا وَقَبَائِلَ لِتَعَارَفُوا﴾ الشعوب رؤوس القبائل، مثل ربيعة ومضر والأوس والخزرج، واحدها شَعْبٌ بفتح الشين، سموا به لتشعبهم واجتماعهم كشعب أغصان الشجرة. والشعب من الأضداد، يقال شعبته إذا جمعته، ومنه المشعب بكسر الميم وهو الإشفي، لأنه يجمع به ويشعب. قال:

فَكَابَ عَلَىٰ حُرِّ الْجَبِينِ وَمُتَّقِي بَمَدْرِيَّةٍ كَأَنَّهُ ذَلَّتْ مِشْعَبِ

وشعبته إذا فرقته، ومنه سميت المنية شعوبا لأنها مفرقة. فأما الشعب بالكسر فهو الطريق في الجبل، والجمع الشُعَاب. قال الجوهري: الشَّعْبُ: ما تشعب من قبائل العرب والعجم، والجمع الشعوب. والشُعُوبِيَّةُ: فرقة لا تفضل العرب على العجم. وأما الذي في الحديث: أن رجلا من الشعوب أسلم، فإنه يعني من العجم. والشعب: القبيلة العظيمة، وهو أبو القبائل الذي ينسبون إليه، أي يجمعهم ويضمهم. قال ابن عباس: الشعوب الجمهور، مثل مضر. والقبائل الأفخاذ (٢). وقال مجاهد: الشعوب البعيد من النسب، والقبائل دون ذلك (٣). وعنه أيضا أن الشعوب النسب الأقرب. وقاله قتادة (٤). ذكر الأول عنه المهدي، والثاني الماوردي. قال الشاعر:

رَأَيْتَ سَعُودًا مِنْ شُعُوبٍ كَثِيرَةٍ فَلَمْ أَرَ سَعُدًا مِثْلَ سَعْدِ بْنِ مَالِكٍ

(١) راجع الآية (٥٠) من سورة الشورى.

(٢) حسن: الطبري (٢٦/١٤٣) في تفسيره من طريق سعيد بن جبيرة، عن ابن عباس رضي الله عنهما.

(٣، ٤) صحيح إلهما: السابق (٢٦/١٤٣).

وقال آخر:

قبائل من شعوب ليس فيهم كَرِيمٌ قد يُعدّ ولا نَجِيبٌ

وقيل: إن الشعوب عَرَبَ اليمن من قحطان، والقبائل من ربيعة ومضر وسائر عدنان. وقيل: إن الشعوب بطون العجم؛ والقبائل بطون العرب. وقال ابن عباس في رواية: إن الشعوب الموالي، والقبائل العرب. قال القُشَيْرِيُّ: وعلى هذا فالشعوب من لا يُعرف لهم أصل نسب كالهند والجلج والترك؛ والقبائل من العرب. الماوردي: ويحتمل أن الشعوب هم المضافون إلى النواحي والشعاب؛ والقبائل هم المشتركون في الأنساب. قال الشاعر:

وتفرّقوا شُعباً فكل جزيرة فيها أمير المؤمنين ومنبرٌ

وحكى أبو عبيد عن ابن الكلبي عن أبيه: الشعب أكبر من القبيلة ثم الفصيلة ثم العمارة ثم البطن ثم الفخذ. وقيل: الشعب ثم القبيلة ثم العمارة ثم البطن ثم الفخذ ثم الفصيلة ثم العشيرة، وقد نظمها بعض الأدباء فقال:

إقصد الشَّعبَ فهو أكثرَ حَيٍّ	عدداً في الحواءِ ثم القَبِيلِ
ثم تتلوها العمارة ثم الـ	بطن والفخذ بعدها والفَصِيلِ
ثم من بعدها العشيرة لكن	هي في جنب ما ذكرناه قَلِيلِ

وقال آخر:

قَبِيلَةٌ قبلها شُعبٌ وبعدهما	عِمارةٌ ثم بَطْنٌ تَلُوهُ فَخَذٌ
وليس يؤوي الفتى إلا فصيلته	ولا سدادَ لِسَهمٍ ما له قُدُّ

السادسة: قوله تعالى: ﴿إِنْ أكرمَكُمُ عِنْدَ اللَّهِ أَنْتَاقُمُ﴾ وقد تقدّم في سورة «الزخرف» عند قوله تعالى: ﴿وَإِنَّهُ لَذِكْرٌ لَكَ وَلِقَوْمِكَ﴾ [الزخرف: ٤٤]. وفي هذه الآية ما يدلّك على أن التقوى هي المراعى عند الله تعالى وعند رسوله دون الحسب والنسب. وقروئ «أن» بالفتح، كأنه قيل: لم يتفاخر بالأنساب؟ قيل: لأن أكرمكم عند الله أنتقامكم لا أنسبكم. وفي الترمذي عن سمرة عن النبي ﷺ قال: «الحسب المال والكرم التقوى» (١). قال: هذا حديث حسن غريب صحيح. وذلك يرجع إلى قوله تعالى: ﴿إِنْ أكرمَكُمُ عِنْدَ اللَّهِ أَنْتَاقُمُ﴾، وقد جاء منصوباً عنه عليه السلام: «من أحب أن يكون أكرم الناس فليتق الله» (٢). والتقوى معناها: مراعاة حدود الله تعالى أمراً ونهياً، والاتصاف بما أمرك أن تتصف به، والتنزّه عما نهاك عنه. وقد مضى هذا في غير موضع. وفي الخبر من رواية أبي هريرة عن النبي ﷺ: «إن الله تعالى يقول يوم القيامة إني جعلت نسباً وجعلت نسباً فجعلت أكرمكم أنتقامكم وأبيتم إلا أن تقولوا فلان ابن فلان وأنا اليوم أرفع نسبي وأضع أنسابكم أين المتقون أين المتقون؟» (٣). وروى الطبري من حديث أبي هريرة أن رسول الله ﷺ قال: «إن أوليائي المتقون يوم القيامة وإن كان

(١) حسن غريب صحيح: الترمذي (٣٢٧١) في تفسير القرآن، وابن ماجه (٤٢١٩) في الزهد، وصححه الألباني (١٨٧٠) في الإرواء.

(٢) ضعيف: الحاكم (٧٧٠٧) في المستدرک، عن ابن عباس - رضي الله عنهما - وفي سننه متروك.

(٣) ضعيف جداً: الهيثمي (٨٤/٨) في المجمع وعزاه للطبراني في الصغیر والأوسط، وفيه طلحة بن عمرو وهو متروك.

نسب أقرب من نسب . يأتي الناس بالأعمال وتأتون بالدنيا تحملونها على رقابكم تقولون يا محمد فأقول هكذا وهكذا»<sup>(١)</sup> . وأعرض في كل عطفية . وفي «صحيح مسلم» من حديث عبدالله بن عمرو قال : سمعت رسول الله ﷺ جهارا غير سر يقول : «إن آل أبي ليسوا لي بأولياء إنما وليي الله وصالح المؤمنين»<sup>(٢)</sup> . وعن أبي هريرة أن النبي ﷺ سئل : من أكرم الناس؟ فقال : «يوسف بن يعقوب بن إسحاق بن إبراهيم» قالوا : ليس عن هذا نسألك ، قال : «فأكرمهم عند الله أتقاهم» فقالوا : ليس عن هذا نسألك ، فقال : «عن معادن العرب؟ خيارهم في الجاهلية خيارهم في الإسلام إذا فقهوا»<sup>(٣)</sup> وأنشدوا في ذلك :

ما يصنع العبدُ بعزِّ الغنى      والعزُّ كلَّ العزِّ للمُتَّقِي  
من عَرَفَ الله فلم تغنه      معرفةُ الله فذاك الشَّقِي

السابعة: ذكر الطبري حدثني عمر بن محمد قال حدثنا عبيد بن إسحاق العطار قال حدثنا منذل ابن علي عن ثور بن يزيد عن سالم بن أبي الجعد قال : تزوج رجل من الأنصار امرأة فطعن عليها في حسبها ، فقال الرجل : إني لم أتزوجها لحسبها إنما تزوجتها لدينها وخلقها ، فقال النبي ﷺ : «ما يضرك ألا تكون من آل حاجب بن زرارة» . ثم قال النبي ﷺ : «إن الله تبارك وتعالى جاء بالإسلام فرفع به الخسيصة وأتم به الناقصة وأذهب به اللوم فلا لوم على مسلم إنما اللوم لوم الجاهلية» . وقال النبي ﷺ : «إني لأرجو أن أكون أحشاكم لله وأعلمكم بما أتقي»<sup>(٤)</sup> ولذلك كان أكرم البشر على الله تعالى . قال ابن العربي : وهذا الذي لحظ مالك في الكفاءة في النكاح . روى عبدالله عن مالك : يتزوج المولى العربية ، واحتج بهذه الآية . وقال أبو حنيفة والشافعي : يراعى الحسب والمال . وفي الصحيح عن عائشة أن أبا حذيفة بن عتبة بن ربيعة - وكان ممن شهد بدرًا مع النبي ﷺ - تبني سالما وأنكحه هندا بنت أخيه الوليد بن عتبة بن ربيعة ، وهو مولى لامرأة من الأنصار . وضباعة بنت الزبير كانت تحت المقداد بن الأسود .

قلت : وأخت عبدالرحمن بن عوف كانت تحت بلال . وزينب بنت جحش كانت تحت زيد بن حارثة . فدل على جواز نكاح الموالي العربية ، وإنما تراعى الكفاءة في الدين . والدليل عليه أيضا ما روى سهل بن سعد في صحيح البخاري أن النبي ﷺ مر عليه رجل فقال : «ما تقولون في هذا؟» فقالوا : حري إن خطب أن يُنكح ، وإن شفع أن يُشفع وإن قال أن يُسمع . قال : ثم سكت ، فمر رجل من فقراء المسلمين فقال : «ما تقولون في هذا» قالوا : حري إن خطب ألا يُنكح ، وإن شفع ألا يُشفع ، وإن قال ألا يُسمع . فقال رسول الله ﷺ : «هذا خير من ملء الأرض مثل هذا»<sup>(٥)</sup> . وقال ﷺ :

(١) كذا في الأدب المفرد (٨٩٧) للبخاري بسند فيه نظر .

(٢) متفق عليه : البخاري (٥٩٩٠) في الأدب ، ومسلم (٢١٥) في الإيمان .

(٣) متفق عليه : البخاري (٣٣٥٣) في أحاديث الأنبياء ، ومسلم (٢٣٧٨ / ١٦٨) في الفضائل ، عن أبي هريرة - رضي الله عنه .

(٤) ضعيف : الطبري (٢٦ / ١٤٤) في تفسيره وفيه إرسال سالم بن أبي الجعد ، ورواه موصولا بسند فيه ابن لهيعة بالضعف ، عن عقبة بن عامر وفيه ضعف .

(٥) صحيح : وقد سبق .

«تنكح المرأة لمالها وجمالها ودينها» وفي رواية: «ولحسبها فعليك بذات الدين تربت يداك»<sup>(١)</sup>. وقد خطب سلمان إلى أبي بكر ابنته فأجابته، وخطب إلى عمر ابنته فالتوى عليه، ثم سأله أن يتكحها فلم يفعل سلمان. وخطب بلال بنت البكير فأبى إختوتها، قال بلال: يا رسول الله، ماذا لقيت من بني البكير خطبت إليهم أختهم فممنوني وأذوني، فغضب رسول الله ﷺ من أجل بلال، فبلغهم الخبر فأتوا أختهم فقالوا: ماذا لقينا من سبيك؟ فقالت أختهم: أمرني بيد رسول الله ﷺ، فزوجوها. وقال النبي ﷺ في أبي هند حين حجه: «أنكحوا أبا هند وأنكحوا إليه»<sup>(٢)</sup>. وهو مولى بني بياضة. وروى الدارقطني من حديث الزهري عن عروة عن عائشة أن أبا هند مولى بني بياضة كان حجاباً فحجم النبي ﷺ، فقال النبي ﷺ: «من سره أن ينظر إلى من صور الله الإيمان في قلبه فلينظر إلى أبي هند»<sup>(٣)</sup>. وقال رسول الله ﷺ: «أنكحوه وأنكحوا إليه»<sup>(٤)</sup>. قال القشيري أبو نصر: وقد يعتبر النسب في الكفاءة في النكاح وهو الاتصال بشجرة النبوة أو بالعلماء الذين هم ورثة الأنبياء، أو بالمرموقين في الزهد والصلاح. والتقي المؤمن أفضل من الفاجر النسب، فإن كانا تقيين فحينئذ يقدم النسب منهما، كما تقدم الشاب على الشيخ في الصلاة إذا استويا في التقوى.

﴿قَالَتِ الْأَعْرَابُ ءَأَمَّا قُلٌّ لِرِئُوسِنَا لَمْ تُوْمِنُوا وَلَكِن قَوْلُوا أَسْلَمْنَا وَلَمَّا يَدْخُلِ الْإِيمَانُ فِي قُلُوبِكُمْ وَإِنْ تُطِيعُوا اللَّهَ وَرَسُولَهُ لَا يَلِتْكُمْ مِنْ أَعْمَالِكُمْ شَيْئاً إِنَّ اللَّهَ غَفُورٌ رَحِيمٌ ﴿١١﴾﴾

قوله تعالى: ﴿قَالَتِ الْأَعْرَابُ ءَأَمَّا قُلٌّ لِمَ تُوْمِنُوا وَلَكِن قَوْلُوا أَسْلَمْنَا وَلَمَّا يَدْخُلِ الْإِيمَانُ فِي قُلُوبِكُمْ﴾ نزلت في أعرب من بني أسد بن خزيمه قدموا على رسول الله ﷺ في سنة جدبة وأظهروا الشهادتين ولم يكونوا مؤمنين في السر، وأفسدوا طرق المدينة بالعدرات وأغلوا أسعارها، وكانوا يقولون لرسول الله ﷺ: أتيناك بالأنفال والعيال ولم نقاتلك كما قاتلك بنو فلان فأعطينا من الصدقة، وجعلوا يمينون عليه فانزل الله تعالى فيهم هذه الآية<sup>(٥)</sup>. وقال ابن عباس: نزلت في أعرب أرادوا أن يتسموا باسم الهجرة قبل أن يهاجروا، فأعلم الله أن لهم أسماء الأعرب لا أسماء المهاجرين. وقال السدي: نزلت في الأعرب المذكورين في سورة الفتح: أعرب مزينة وجهينة وأسلم وغفار والدليل وأشجع، قالوا آمنا ليأمنوا على أنفسهم وأموالهم، فلما استنفروا إلى المدينة تخلفوا، فنزلت. وبالجمله فالآية خاصة

(١) صحيح : وقد سبق .

(٢) صحيح : أبو داود (٢١٠٢) في النكاح ، وصححه الألباني هناك ، وابن حبان (٤٠٦٧ ، ٤٠٦٨) في صحيحه ، والبيهقي (٧ / ٣٦) في الكبرى كلهم عن أبي هريرة - رضي الله عنه .

(٣ ، ٤) ضعيف : الدارقطني (٣ / ٣٠٠) في سننه ، وعزاه الهيثمي (٩ / ٣٧٧) في المجمع للطبراني الأوسط ، وفيه راو مجهول وبقية رجاله ثقات .

(٥) في إسناده نظر : الطبراني (٧ / ١٩٦) في الأوسط ، وعزاه ابن كثير (٧ / ٣٠١) في تفسيره للبخاري ، وفيه محمد ابن حبيش وفيه كلام ، عن أبي عون الثقفي .

ومحمد بن حبيش هو الأسدي مختلف فيه كما في الميزان (٦ / ٣٠٧) ، وقال يحيى بن معين : «ليس بشيء» ، ووثقه أحمد كما في الكامل (٦ / ٢٥٠) لابن عدي .

لبعض الأعراب، لأن منهم من يؤمن بالله واليوم الآخر كما وصف الله تعالى (١). ومعنى ﴿وَلَكِنْ قُولُوا أَسْلَمْنَا﴾ أي استسلمنا خوف القتل والسبي، وهذه صفة المنافقين، لأنهم أسلموا في ظاهر إيمانهم ولم تؤمن قلوبهم، وحقيقة الإيمان التصديق بالقلب. وأما الإسلام فقبول ما أتى به النبي ﷺ في الظاهر، وذلك يحقن الدم. ﴿وَإِنْ تَطِيعُوا اللَّهَ وَرَسُولَهُ﴾ يعني إن تخلصوا الإيمان ﴿لَا يَلْتَكُمْ﴾ أي لا ينقصكم. ﴿مِنْ أَعْمَالِكُمْ شَيْئًا﴾ لأنه يَلِيْتُهُ وَيَلُوتُهُ: ناقصه. وقرأ أبو عمرو «لا يالتكم» بالهمزة (٢)، من الت يالت ألتا، وهو اختيار أبي حاتم، اعتبارا بقوله تعالى: ﴿وَمَا آتَيْنَاهُمْ مِنْ عَمَلِهِمْ مِنْ شَيْءٍ﴾ [الطور: ٢١] قال الشاعر:

أبلغ بني ثعلب عني مغللة  
واختار الأولى أبو عبيد. قال روية:

وليلة ذات ندى سررت  
ولم يلتني عن سراها لبت

أي لم يمنني عن سراها مانع؛ وكذلك آتاه عن وجهه؛ فعل وأفعل بمعنى. ويقال أيضا: ما آتاه من عمله شيئا؛ أي ما ناقصه؛ مثل آتاه؛ قاله الفراء. وأنشد:

ويأكلن ما أعنى الوكي فلم يلت  
كان بحافات النهاء المزارعا

قوله: فلم «يلت» أي لم ينقص منه شيئا. و«أعنى» بمعنى أنبت، يقال: ما أعنت الأرض شيئا، أي ما أنبتت. و«الولي» المطر بعد الوسمي، سمي وليا لأنه يلي الوسمي. ولم يقل: لا يالتاكم، لأن طاعة الله تعالى طاعة الرسول.

﴿إِنَّمَا الْمُؤْمِنُونَ الَّذِينَ آمَنُوا بِاللَّهِ وَرَسُولِهِ ثُمَّ لَمْ يَرْتَابُوا وَجَاهَدُوا بِأَمْوَالِهِمْ وَأَنْفُسِهِمْ فِي سَبِيلِ اللَّهِ أُولَئِكَ هُمُ الصَّادِقُونَ﴾ قُلْ أَعْلَمُونَ أَنَّ اللَّهَ يَعْلَمُ مَا فِي السَّمَوَاتِ وَمَا فِي الْأَرْضِ وَاللَّهُ بِكُلِّ شَيْءٍ عَلِيمٌ ﴿١﴾

قوله تعالى: ﴿إِنَّمَا الْمُؤْمِنُونَ الَّذِينَ آمَنُوا بِاللَّهِ وَرَسُولِهِ ثُمَّ لَمْ يَرْتَابُوا﴾ أي صدقوا ولم يشكوا وحققوا ذلك بالجهاد والأعمال الصالحة. ﴿أُولَئِكَ هُمُ الصَّادِقُونَ﴾ في إيمانهم، لا من أسلم خوف القتل ورجاء الكسب. فلما نزلت حلف الأعراب أنهم مؤمنون في السر والعلانية وكذبوا، فنزلت. ﴿قُلْ أَعْلَمُونَ اللَّهُ بِدِينِكُمْ﴾ الذي أنتم عليه. ﴿وَاللَّهُ يَعْلَمُ مَا فِي السَّمَوَاتِ وَمَا فِي الْأَرْضِ وَاللَّهُ بِكُلِّ شَيْءٍ عَلِيمٌ﴾.

﴿يَتُوبُونَ عَلَيْكَ أَنْ أَسْلَمُوا قُلْ لَا تَتُوبُوا عَلَيَّ إِسْلَمَكُمْ بَلِ اللَّهُ يَمُنُّ عَلَيْكُمْ أَنْ هَدَاكُمْ لِلْإِيمَانِ إِنْ كُنْتُمْ صَادِقِينَ﴾ إِنَّ اللَّهَ يَعْلَمُ غَيْبَ السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضِ وَاللَّهُ بِصِيرٍ بِمَا تَعْمَلُونَ ﴿٢﴾

قوله تعالى: ﴿يَتُوبُونَ عَلَيْكَ أَنْ أَسْلَمُوا﴾ إشارة إلى قولهم: جنناك بالانثقال والعيال. و﴿أَنْ﴾ في موضع نصب على تقدير لأن أسلموا ﴿قُلْ لَا تَتُوبُوا عَلَيَّ إِسْلَامَكُمْ﴾ أي بإسلامكم ﴿بَلِ اللَّهُ يَمُنُّ عَلَيْكُمْ أَنْ

(١) انظر: الواحدى (ص ٢٣٦) في أسباب النزول معلقا.

(٢) قراءة متواترة: تقريب النشر (ص ١٧٥).

هَذَاكُمْ لِلْإِيمَانِ ﴿ أَنْ ﴾ موضع نصب، تقديره بأن. وقيل: لأن. وفي مصحف عبدالله «إذ هداكم». ﴿ إِنْ كُنْتُمْ صَادِقِينَ ﴾ أنكم مؤمنون. وقرأ عاصم «إن هداكم» بالكسر؛ وفيه بُعد؛ لقوله ﴿ إِنْ كُنْتُمْ صَادِقِينَ ﴾. ولا يقال يمين عليكم أن يهديكم إن صدقتم. والقراءة الظاهرة ﴿ أَنْ هَذَاكُمْ ﴾. وهذا لا يدل على أنهم كانوا مؤمنين، لأن تقدير الكلام: إن آمنتم فذلك منة الله عليكم. ﴿ إِنْ اللَّهُ يَعْلَمُ غَيْبَ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ وَاللَّهُ بَصِيرٌ بِمَا تَعْمَلُونَ ﴾. قرأ ابن كثير وابن محيصن وأبو عمرو بالياء على الخبر، ردا على قوله: ﴿ قَالَتِ الْأَعْرَابُ ﴾. الباقيون بالتاء على الخطاب.

تم بعون الله تعالى الجزء السادس عشر من تفسير القرطبي يتلوه إن شاء الله تعالى الجزء السابع عشر، وأوله سورة «ق» .